أسماك على اليابسة

اسم الكتاب: أسماك على اليابسة
المؤلف: تحسين علي كريدي
الطبعة الثانية: ٢٠٢٠
تصميم الغلاف والإخراج الفني: سالم الموسوي
رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق العراقية ببغداد(٢٨٥٤) سنة ٢٠١٣
E-mail: tahseen8234@Gmail.com
حقوق الطبع محفوظة: لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت (الكترونية) أو (ميكانيكية) أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو بخلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من المؤلف.

All rights reserved, not part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, Electronics, mechanical photocopying, recording of otherwise, without prior permission in writing of the author.

تحسين علي كريدي

أسماك على اليابسة

رواية

الإهداء

إلى روحك التي فارقتنا مبكراً.

إلى روحك التي ننتظر الوصل بها.

إلى تراب توسده خدك.

إليك، ولدي الحسين.

-١-

عامان مرّا منذ قدومه لدراسة الهندسة الميكانيكية في ثاني أكبر مدن البوسنة ـ بانيالوكا ـ المدينة الجميلة الغافية على نهر(الڤرباس). ولأنها تقع في الشمال الشرقي من البوسنة عند المثلث مع صربيا وكرواتيا، لذا فقد تنوعت أعراق سكانها بين صرب وكروات ومسلمين؛ توحدهم اللغة، ويفرقهم الدين والقومية، رغم العقيدة الماركسية التي تلغي الأديان والقوميات وشعار (الأخوّة والوحدة) المخطوط على معظم البنايات.

كان ذهنه مشدوداً بمتابعة أستاذ مادة خواص المواد، وهو يشرح لطلابه سبب ميل العناصر للارتباط بعناصر أخرى. ويعزو ذلك إلى رغبة العناصر، لإشباع غلافها الخارجي بعملية فقدان، أو اكتساب الإلكترونات للوصول إلى حالة الاستقرار، إلى قوله:

- بعض العناصر يكوّن آصرة واحدة، وبعضها يميل لتكوين آصرتين أو ثلاث.

عندما تناهى لسمعه الجملة الأخيرة، سرح فكره بعيداً عن متابعة الموضوع، فهو الآن في خضم آصرة ثلاثية، فثمة علاقة تربطه بثلاث فتيات في آن واحد؛ صربية، وكرواتية

وأخرى مسلمة، وكأنه ينشد إقامة العدل بين قوميات المدينة.
(ميلانكا) الصربية، وهي الفتاة الأولى التي تعرف إليها. شقراء فارعة الطول بعينين زرقاوين وجسد مكتنز، تدرس الرسم في المرحلة الإعدادية. التقاها في منزل صديقه الطالب العراقي (علاء)، عندما كانت برفقة (جاكلين)، صديقة(علاء).

ذلك اليوم كانت ندف الثلج تنهمر في الخارج والجو لا يغري أحداً على الخروج، فبقي الأربعة يتسامرون لساعة متأخرة من الليل. كان يتصرف مع (ميلانكا) بطريقة رسمية ومتحفظة، ولم يتودد إليها، لأنه رآها ترمقه من طرف خفي بنظرات الإعجاب. فأراد أن تصدر الخطوة الأولى عنها. في الآخر نجحت معها لعبة المطاولة ونال مراده، عندما همست بأذن(علاء) مبدية إعجابها به.

ارتبط (سمير) بها، ولكنه أخضعها منذ اللحظة الأولى لسيطرته، وهذا الأمر راقها ولم تعترض عليه.

كانت مهووسة بالرسم والجنس، لذا فهي تفضل أن تمضي معظم الوقت معه في منزله، وينضم إليهما من حين لآخر (علاء)و (جاكلين).

فتاته الثانية وهي الأقرب إلى قلبه، كانت الكرواتية (مارينا)، شقراء في العشرين من عمرها، وجهها مستدير وعيناها

واسعتان فيروزيتان ذات مسحة خجولة مفعمة بالأنوثة؛ تضفر شعرها الذهبي وتضع فيه مشابك ملونة تضفي عليها أنوثة ورقة أكثر، قوامها جميل رغم أنها مكتنزة بعض الشيء.

تعرف عليها الصيف الفائت، عند القلعة الأثرية العثمانية الجميلة (كاستل) ذات الإطلالة الرائعة على نهر(ڤرباس) الذي يشطر المدينة إلى نصفين. فتحولت إلى مقصد لشباب المدينة، بينما هي في واقع الأمر، كانت ذات يوم سجناً عثمانياً.

كانت جالسة مع صديقتها المفضلة(يلَنا) التي كانت على النقيض من (مارينا)، نحيفة ووجها مليء ببثور حب الشباب الحمراء، أما شعرها القصير فأضفى عليها مظهراً ذكورياً.

لمحها من بعيد بعيني صقر، واقترب من المقعد الذي جلستا عليه وقال لها متودداً:

- لا بد وأن الشبان قد فقدوا أبصارهم اليوم، ليتركوا جميلة مثلك من دون رفقة!

ارتسمت على وجهها الفاتن ابتسامة رقيقة، ولم تتفوه بأي كلمة، بيدَ أن الأمر كان مشجعاً بما يكفي ليطلب منها الإذن بالجلوس قربها، فوافقت.

عرّفها بنفسه:

- أنا(سمير) من العراق. أدرِسُ هندسة الميكانيك، في المرحلة الأولى.
- أنا (مارينا) وهذه صديقتي (يَلَنا) حسبتك غجرياً أو إيطالياً للون بشرتك.
- فيما يخص الغجر، فأنا أستطيع قراءة الكف مثلهم.
- أحقاً ما تقول؟
- هاتِ يدك لأريك.

أمسك بكفها الأبيض الناعم الملمس، وقال وهو يتفحص باطنه:

- ستعمرين طويلاً. ثمانين عاماً أو أكثر.

سرها كثيراً كلامه وقالت:

- أحقاً ما تقول؟ هذا يعني بأن في وسعي السير وسط الشارع؛ دون الخشية من السيارات.
- حسناً، الأمر مختلف بعض الشيء، فأنا لا يمكنني معرفة إن كنت ستقضين حياتك الطويلة على رجليك، أم على كرسي مدولب!
- أوه، يا إلهي! لم أفكر بذلك الشيء!
- فيما يخص الثروة، فستصبحين غنية جداً. وأما فيما يخص حياتك العاطفية، فسترتبطين عمّا قريب

بشخص يبدأ اسمه بحرف السين.

ظلت تقلب في رأسها عمن تبدأ أسماؤهم بحرف السين من معارفها، وهي تتمتم: سين سين؛ فلم تسعفها ذاكرتها وهزت رأسها وهي تقول:

- لا أعرف أحداً يبدأ اسمه بحرف السين.
- وماذا عني؟ اسمي يبدأ بحرف السين!

سحبت يدها، عندما أدركت أنه كان يمازحها بزعمه معرفة قراءة الكف؛ ولكنه لم يتوقف عند ذلك الحد، فتابع:

- أما فيما يتعلق بإيطاليا، فقد زرتها عدة مرات وأحب لغتها وتعلمت القليل منها، هل تعرفين ماذا تعني (تيامو) بالإيطالية؟
- لا!
- تعني أحبك، هل تستطيعين ترديدها؟
- (تيامو).

وضع يده على قلبه، وقال:

- وأنا كذلك.

انفرج ثغرها عن ابتسامة ملائكية، عندما أدركت أنه أوقع بها، لتتلفظ تلك الكلمة؛ لكنها كانت دعابة ذات وقع لطيف على قلبها. دعاها لشرب شيء ما في مقهى(الكازمات) القريب

منهم، فاعتذرت قائلة:

- يتوجب عليَّ الذهاب إلى المنزل مبكراً، فأختي قادمة لزيارتنا من مدينة (زغرب) مع زوجها.
- وماذا عن يوم غد؟
- حسنا، غداً في السابعة مساء في هذا المكان بالذات.

ثم ودعته مغادرة.

كانت (مارينا) تنتظر دورها في مكتب التشغيل؛ للحصول على وظيفة، بعد أن أنهت دراستها في إعدادية الصناعة، الأمر الذي قد يستغرق عدة سنوات.

استمرت علاقته بـ(مارينا) بضعة أشهر، لغاية ذلك اليوم الذي طلبت منها شقيقتها المتزوجة، والتي تقطن مدينة (زغرب)، الإقامة عندها لترعى ابنتها، بعد انتهاء إجازة الأمومة التي تمتعت بها في الفترة السابقة؛ وكانت رعاية ابنة شقيقتها مقابل أجر بالطبع، وهذا شيء لا يمكنها رفضه.

كانت مدينة(زغرب) تبعد مائة ثمانين كيلومتراً إلى الشمال من مدينة (بانيالوكا)، وهذا يعني أن الانفصال أمر حتمي، ولكنه انفصال ودي، فقد بقيت على اتصال به عن طريق الهاتف.

بعد رحيل (مارينا) ارتبط بفتاة مسلمة، تدعى (ساندرا). كانت فتاة في الثامنة عشرة من عمرها، ذات بشرة قمحية وشعر فاحم

غجري طويل مسدل إلى ظهرها. عيناها عسليتان مشوبتان باخضرار. وفي أعلى الجهة اليمنى من فمها يوجد خال يضفي على وجهها انطباعاً باسماً. كانت تميل لارتداء بنطلون من الجينز، وسترة وحذاء عسكريين تمثلاً بـ(الهيبز). التقاها في نادٍ ليلي للشباب. فتوجه نحوها وطلب مراقصتها فوافقت. بعدها جلسا لتناول القهوة.

سألته:

- من أي بلد أنتَ؟
- خمنّي؟
- أنت من العراق.

لا يعلم لماذا استفزته إجابتها الصائبة التي لم يتوقعها. وتساءل: (هل يُحتمل أنهما التقيا من قبل؟ كلا، فهو لا ينسى الوجوه الجميلة مطلقاً). ثم نفى كونه من العراق.

- من فلسطين إذاً!
- لا.

ظلت تردد له الدولة تلو الأخرى وهو ينفي. إلى أن قالت:

- أنت من الهند!
- الآن أصبت.

لم يكد ينهي كلامه حتى قفزت من مكانها منبهرة، وهي تقول:

- أحقا أنت هندي؟ لا أصدق نفسي، وأخيراً تحقق حلمي بالتعرف إلى شخص هندي. إنك لا تعلم كم هي محبتي للهند! أوه يا إلهي كم هو جميل ذلك الزي الذي ترديه الهنديات أو ليس اسمه الساري؟ كم تمنيت أن أمتلك واحداً لأرتديه.

قال لها:

- نعم اسمه الساري، إن ذهبت في زيارة لأهلي فسأجلب لك معي واحداً.
- حقاً! ومتى ستزورهم؟

فقال بخبث:

- بعد أن أنهي دراستي.

تطلعت بوجهه محبطة، فتابع مبتسماً:

- ولكن بوسعي أن أطلب منهم أن يبعثوا لي واحداً على مقاسك.

أوه كم هذا رائع. نسيت أن أعرفك بنفسي أنا (ساندرا).

- وأنا (راجيش).

هذا الاسم كان عالقا في ذاكرته منذ مرحلة الدراسة المتوسطة في مدينة(العمارة)، وهو لطالب هندي كان يدرس معه. جاء مع والده الذي كان يعمل مهندساً في شركة هندية حصلت

على عقد عمل لبناء ناظم مائي في مدينة العمارة.

- وما ديانتك؟
- أنا سيخي.
- يا للأسف.

قال مندهشاً:

- لماذا؟
- والدتي لا تسمح لي بمواعدة غير المسلمين.

لم يدر بخلده أن تكون مسلمة، فاسم(ساندرا)لا يوحي بذلك، لأن أغلب أسماء المسلمين هنا إما أن تكون عربية أو تركية. العلاقات والزيجات المختلطة في هذه المدينة ليست نادرة، فمساحة الحرية الفردية في ثقافة هذا المجتمع الأوربي المتحضر كبيرة، وغالباً ما تنتصر لإرادة الحب إذا ما قرر حبيبان من قوميتين وديانتين مختلفتين الارتباط. ولكن هنالك في المقابل نزوع فطري لدى البشر للحفاظ على جنسهم وموروثهم الثقافي. وعلى ما يبدو أن الشرخ في العلاقات ما يزال متقداً، حتى بعد قرن من رحيل آخر جندي عثماني، وخمسة وثلاثين عاماً من الحكم الشيوعي الذي حاول صهر الهوية القومية وإعادة انتاجها بروح وطنية.

تدارك الأمر بقوله لها:

– ولكني مسلم، فالسيخ هم طائفة إسلامية.

وزيادة في إقناعها بكلامه، قرأ لها سورة الفاتحة ليثبت لها ذلك. وهكذا أصبحا على علاقة ببعضهما.

كانت(ساندرا) غيورة، وكانت تحاول اختبار وفائه لها، بأن تغير صوتها عندما تتصل به على الهاتف وتدعي أنها إحدى المعجبات، أو أن تدع إحدى صديقاتها تحاول إغوائه. ولكنه يحبط جميع محاولاتها ويكتشف أمرها، لأنها وببساطة كانت الوحيدة التي كانت تدعوه باسمه المزيف (راجيش).

كان الارتباط بكل من(ميلانكا) التي تفضل سرير النوم و(ساندرا) التي تفضل التردد على المقاهي وصالات الرقص، يسير بشكل سلس ومسيطر عليه، لكن أمراً غير متوقع طرأ بعد ثمانية أشهر من رحيل (مارينا)، إذ حملت شقيقتها للمرة الثانيـة، وتمتعت بإجازة ولادة، فرجعت(مارينا) إلى (بانيالوكا)، وعادت الروح لعلاقتهما من جديد، فكانت ثالثة الأثافي.

قَطَعتْ سلسلة تفكيره، الجلبة التي أحدثها قيام الطلاب للخروج بعد أن أنهى الأستاذ محاضرته.

وقبل أن يصل إلى سيارته التي ركنها في باحة الكلية، سمع صوت زميلته (سعادا) تنادي عليه.

كانت (سعادا) معجبة به منذ بداية العام الدراسي، ولكنه لم

يعرها اهتمامه لأنها، لا تتمتع بجمال كافٍ ليغريه، وتفتقر لسِحْر الأناقة الذي تستخدمه بعض الفتيات ليبدون أجمل؛ ولكنه لعب معها لعبة غير منصفة، فلم يرفضها، وفي ذات الوقت لم يؤملها بقبوله لها؛ لأنه كان بحاجة إلى دفاترها التي تلخص فيها المحاضرات، بخط جميل وواضح.

وكما في كل مرة كان حديثه معها مقتضباً، وتملص منها عائداً بسيارته إلى سكنه.

-٢-

سأل نفسه عدة مرات عن الفائدة التي يجنيها من هذا التشابك الطائش، مادامت النتيجة ذاتها عندما يلتحف الجسد بالجسد. فحياته أضحت مرتبكة وفوضوية جراء هذه الهرولة في مضمار نهايته غير واضحة المعالم. والخشية من افتضاح أمره في مدينة ليست بالكبيرة، كان هاجساً حقيقياً يشغل تفكيره. فإن صادفته إحداهن برفقة أخرى، فسيحدث ما لا يحمد عقباه.

وقد تبدو الخطة التي وضعها لتدارك حدوث مثل هذا الموقف بتردده مع كل واحدة منهن على مكان مختلف لقضاء أمسية ما، موفقة، وشرائه سيارة (ڤولگسڤاگن ـ غولف) التي اختصرت له الوقت والمسافات، لكن الصعوبة تكمن في وضع جدول دقيق لتنظيم الوقت المخصص لتلك العلاقات ودراسته في الكلية. الأمر المؤكد أن الحظ الذي حالفه لغاية تلك اللحظة، لابد وأنه سيخذله في يوم ما.

حاول الانعتاق أكثر من مرة من هذا الوضع، قبل هبوب عاصفة الفضائح؛ لكن تلك المحاولات كانت تصطدم بأورام الماضي، وبجرح ما يزال ينز ألماً ووجعاً؛ جرح قاده إلى هذه الديار النائية، تاركاً في أعماقه جنوحاً لا إرادياً نحو الخيانة

وعدم الإخلاص لأية أنثى؛ لن يدع خطأ الماضي يتناسل؛ ففي روحه لم يعد ثمة متسع للشفقة لبنات حواء، وثقته بالنساء كانت أشبه بثقة(شهريار) بهن، وما يزال الوقت مبكراً للعثور على (شهرزاد).

كانت تجربة حب مريرة ومؤلمة، غيرّتْ مسير حياته مرتين، مسرحها لم يتخطَّ حدود زقاقهم الشعبي في محلة السراي في مدينة العمارة، جنوبي العراق؛ بكثير.

هناك حيث ترعرع، كانت الأشياء من حوله تبدو متناهية في الكبر، على الرغم من صغر الحيز الذي يتحرك فيه؛ وكل ما سواه، كان بالنسبة إليه عوالماً أخرى، ينوء بها خياله البريء بالفضول وفصول الخوف، التي خلّفته في نفسه، قصص جده عن (الطنطل والسعالي وعبد الشط) التي كانت تحكى له بغية إخافته، كي لا يسوغ له الفضول وشقاوة الأطفال، الذهاب بعيداً عن محيطه الآمن.

كان والده يتباهى به أمام أصدقائه، ويسأله:

- (سمير). ماذا ستصبح عندما تكبر؟

فيجيبه وكأنه ببغاء لُقنت الكلام:

- سأصبح مهندساً.

على الرغم من جهله لما كانت تعنيه تلك الكلمة، فهي مجرد

كلمة جوفاء اعتاد ترديدها عندما يُسأل.

ولكن مع دخوله المدرسة وتنامي معرفته، علم كنه تلك الكلمة، وعلم سبب تشبث والده بترديدها، فهي تعني المكانة المرموقة، التي لا يحظى بها إلا من كان عالي الهمة.

كان متفوقاً في دراسته، فقد اشتمل رأسه الصغير وعيناه الواسعتان العسليتان على ذكاء حاد ونظرة ثاقبة. وكانت مثابرة والده في حثه على الدراسة، لها الأثر الكبير على تفوقه ذاك، فكان يستبق المرحلة الدراسية بمراجعة كتبها خلال العطلة الصيفية.

ولكن عندما بلغ الثالثة عشرة من عمره، وقع في الحب، وهبطت الدراسة إلى المرتبة الثانية في سلم أولوياته؛ فقبل ثلاثة أعوام من ذلك، استأجرت (أم باسم) وهي أرملة، وأم لثلاثة أولاد هم (باسم، وإبتسام، وهيام)، الدار المجاورة لدارهم بعد وفاة زوجها الذي كان موظفاً في معمل سكر ميسان، وإرْغام الأسرة على إخلاء الدار العائدة للمعمل التي كانوا يشغلونها، بعد ستة أشهر من وفاته. وشاءت الأقدار أن يكون بعمر ابنة جارتهم(هيام) تلك الفتاة البيضاء ذات العينين الفيروزيتين الواسعتين، والجديلتين ألكستنائيتين اللتين ينتهي طرفاهما بلون أشقر زاهٍ بلون الذهب، وبذات العمر والمرحلة الدراسية.

زقاقهم القديم الذي لا تنبت فيه غير أعمدة الكهرباء، وقضمت أضراس الزمن آجر بيوته العتيقة الصغيرة التي لا يتوافر فيها حيز للعب الأولاد، كان هو فضاءهم الذي يمارسون فيه ألعابهم التي تتنوع مع المواسم والأعمار، فكانت تزدهر لعب مثل (الدعبل والبلبل والمصرع والطائرات الورقية وكرة القدم) بالنسبة للذكور. أما بالنسبة للإناث (فالمحلق والحبل وطم خريزة)، أما من هم بسن أصغر فبوسعهم ممارسة ألعاب يشترك فيها كلا الجنسين، مثل (الرِكَّيضان، والختَّيلان).

وكان للنسوة نصيبهن في الزقاق أيضاً، فيتخذن مجلسهن كل يوم تقريباً عند عتبة أحد البيوت، يثرثرن ويتبادلن الأحاديث ويراقبن أولادهن اللاهين باللعب، للفترة الممتدة بين العصر بعد أن تهفت وقدة الحر، ولغاية مغيب الشمس.

أحاديث النسوة كان يقطعه بين الفينة والأخرى صوت بكاء أحد الأولاد الذي قد يكون تعرض للضرب، أو للدفع من أحدهم؛ فتهرع أم الطفل المعتدي، وتقرص أذنه، وتهدده بأنها ستبلغ والده بما فعله، عندما يعود من المقهى، والذي سيسلخ له جلده، لتسترضي بذلك أم المعتدى عليه التي تبدو كالدجاجة النافخة ريشها من الغيظ.

وعندما تنفض النسوة عباءاتهن ويشرعن الدخول إلى بيوتهن،

قبل أذان المغرب، تنادي كل واحدة منهن على ولدها أو ابنتها ليدخل بدوره أيضاً، وكان الأولاد يتململون في العادة؛ فجذوة اللعب لديهم، لم تنطفئ بعد، وقد يستغرق منهم ذلك عشر دقائق أو أكثر؛ لينفرط عقد جمعهم.

كان ذلك المشهد يتكرر كل يوم تقريباً، وكأنه مسرحية يعاد عرضها مرات ومرات.

ذلك اليوم كان سمير وهيام وآخرون يلعبون، الركيضان ومثلما في كل مرة، كان كل شيء يسير ببراءة وعفوية الطفولة، عندما وقع عليه الدور للإمساك بأحدهم وكانت هيام هي الأقرب إليه، فطاردها وكان أسرع منها وعندما تيقنت أنه سيمسك بها لا محالة، توقفت واستدارت نحوه بشكل عفوي، فلامست يده صدرها. حدث هذا من قبل مرات ومرات، ولكن في هذه المرة كان الأمر مختلفاً، فقد أحس بظهور نتوء ناعم الملمس في صدرها. لم يكن ساذجاً، بحيث لا يعرف ما ذلك الشيء الذي لا يحق له لمسه، ولكنه في ذات الوقت بدا مثيراً بشكل طاغٍ وغير معهود لصبي لم يبلغ الحلم بعد. بقيت يده ملتصقة بصدرها وكأن ثمة قوة خفية تجذبها إليه. ولم يرفعها إلا بعد أن علا صياح بقية الفريق يستحثونهما فيه على لعب دور آخر.

في بادئ الأمر اعتقد أنها ستعنفه أو تضربه بسبب فعلته التي

تخلو من الحياء، ولكنه لاحظ ابتسامة علت ثغرها الرقيق والتماع عينيها الفيروزيتين، وكأنها تبوحان بالقبول والإذعان الصامتين.

ومنذ تلك اللحظة وقعا في الغرام، وأصبح شغله الشاغل؛ ترصد الفرص التي تمكنه من اقتناص القبل السريعة، بعيداً عن العيون الحاشدة بالفضول والترقب، والمتهيئة لأي حدث مماثل؛ لإدراجه ضمن قائمة الفضائح اليومية، ولكن أحداً ما لم يشك بأن خلف هذين الوجهين البريئين، كانت تختبئ رغبة ذكر وأنثى.

بعد مرور عامين من ذلك التأريخ، كانا قد نضجا على ممارسة اللعب في الزقاق، فكان سطحا منزليهما مسرحهما البديل، فكان لا يفوِّت أية فرصة لينتزع على تمنع خجول منها؛ قبلة يطبعها على شفتيها الزهريتين أو يتبادلان رسم قلبين في وسطهما سهم والحروف الأولى من اسميهما على كتبهما.

مضى على قصة حبه لـ(هيام) أربعة أعوام وها هو امتحان البكلوريا يطرق الأبواب وهو الفيصل في تحديد مستقبل أي طالب. فالحصول على معدل عالٍ سيكون كفيلاً بتحقيق حلمه وحلم أبيه بأن يصبح مهندساً، ولكن حدث شيء لم يكن بالحسبان على الإطلاق، إذ جاءت إليه (أم باسم) وترجته أن

تدرس(هيام) معه، لعلمها بأنه متفوق في دراسته على عكس ابنتها، وبذلك لن تكون مضطرة لتعيين مدرسين اختصاصين لها.

كان ذلك كنعمة حلت عليه من السماء، ولاسيما أن أباه أفرد لهما غـرفة الضيوف، ليتفرغا للدراسة في جو هادئ. لم يكن هنالك ما يدعو للريبة أو الشك لدى أبيه فهو لا يشك بتصرفات ابنه، و(هيام) ليست بالغريبـة عــن العائلة؛ ولكنه مع ذلك، كان يدخل عليهما من حين لآخر؛ للاطمئنان على سير دراسة ابنه، الذي يتمنى أن تتكحل عيناه برؤيته وهو يرتاد كلية الهندسة.

كان باب غرفة الضيوف، الوحيد في بيتهم، الذي يوصد بمفتاح؛ وهكذا حظيا بفصل رائع من الحب، بأجواء هادئة وباب موصد.

في نهاية المطاف، عمت الفرحة كلتا الدارين، وصدحت منهما زغاريد الفرح بالنجـاح، وفُرِقتْ قطع الحلوى فوق رأسيهما؛ لقد نجحا في البكلوريا، لكن ثمن ساعات الحب التي أهدراها كان باهضاً، إذ اجتازت هي بمعدل واطئ، ولكنه كافٍ ليدخل السرور إلى قلب والدتها، التي كانت سترضى بأن ترتاد هيام المعهد الفني أو الزراعي؛ فهي تعي أن مصير البنات

بالتالي هو الزواج؛ أما هو فكان معدله دون المتوقع، ولا يتيح له دخول كلية الهندسة، لا في بغداد، ولا في البصرة، ولكن ما زال بوسعه دراستها في الموصل.

أيقظت الجلبة، جده الذي تخطى عتبة الثمانين من العمر، والذي كان يغط في نومه، وسأل عما يدور، فأخبروه بأن حفيده نـجح في البكلوريا، فدعاه إليه ليهنئه. فقصد سمير غرفة جده التي تعبق برائحة دخان السجائر التي يُفرط في تدخينها رغم نوبات السعال التي كانت تصيبه من حين لآخر. لم تعد قوة الجد تعينه على الحركة كسابق عهده عندما كان يخدم في الجيش، ولكنه ما يزال يحتفظ بحس الفكاهة والدعابة المعهودة عنه.

طبع جده على جبينه قبلة، وهو بدوره قبَّل يد جده التي تحول لون سبابتها ووسطاها إلى اللون البني؛ جراء قطران السجائر.

بعدها أخرج الجد من جيبه ورقة خضراء من فئة الخمسة والعشرين ديناراً ودسها في جيب حفيده، وهو يقول:

- خذ يا ولدي هديتك مني. لقد أثلجت صدري بنجاحك. إن شاء الله تدخل الكلية العسكرية، وتصبح ضابطاً وكتفك يزهو بالرتبة، على خلاف جدك الذي أفنى عمره كله، واضعاً الرتبة على ذراعه، ثم أخيراً، وقبل

أن يحال إلى التقاعد بسنتين، وضعها على ياقته.
الرتبة على الكتف هيبة يا ولدي.

فشكره على هديته وقال له:

- يا جدي كان ذلك في الماضي، أما اليوم فالجميع يتهرب من دخول الكلية العسكرية بسبب الحرب المستعرة منذ سنة، مع إيران.

فقال الجد متباهياً:

- لدي معارف كثر في الجيش، منهم من أصبح وكيل وزارة، ومنهم من أصبح رئيساً للأركان. عندما تخرج عمك(ماجد) من الثانوية توسطت له عند معارفي من الضباط وأدخلته الكلية العسكرية. وكان بوسعي إدخال والدك إليها، ولكنه فضَّل معهد المعلمين.

اكتست علامات الشفقة وجه(سمير)، وقال:

- يا جدي إن شاء الله أن يمد لنا عمرك، ولكن من تعرفهم أصبحنا اليوم نقرأ عنهم في التاريخ. أنت أحلت إلى التقاعد منذ ربع قرن تقريباً، لبلوغك السن القانونية، ولا بد أن معارفك بدورهم قد أحيلوا إلى التقاعد، هذا إن لم يتوفاهم الله بدنو أجلهم.

أطرق رأسه عندما وعى حقيقة ما قاله حفيده، وقال بحسرة:

- العسكرية مهنة موروثة في عائلتنا، والدي خدم مع الجيش العثماني، وشارك في الحرب ضد الروس في جبهة القوقاز، أما أنا فانخرطت في الجيش منذ تأسيسه في العهد الملكي، وشاركت في العديد من المعارك، وأخيراً عمك. وتمنيت أن يستمر هذا الأمر من جيل لآخر.

أراد أن يسترضيه فقال له:

- لا عليك يا جدي، سأقنع أخي(منير)، ليختار الكلية العسكرية عندما يتخرج وبهذا يتم لك ما أردت.

كانت فرحته بتخرجه منقوصة، فقد شُغل باله كثيراً بالتفكير بـ(هيام) التي لا يطيق الابتعاد عنها، فيما لو تم قبوله في جامعة الموصل، أو حتى في أي مكان آخر.

ظل يقلب الأمر بين عقله وبين قلبه، بين مستقبله، وبين (هيام)، فرجحت كفة القلب. ولكن لا شيء مجاني في هذا العالم، فكان ثمن خطته، هو التضحية بمستقبله وطموح والده بأن يصبح مهندساً، قرباناً على مذبح الحب. كانت الفكرة بسيطة، فما دام أنها ستختار المعهد الفني في استمارة التقديم المركزية للمعاهد والجامعات، حيث يؤهلها معدلها للقبول فيه، لذا فإن المعهد الفني سيكون خياره الأول كذلك، وهكذا سيكون

قريباً من حبيبته لعامين.

وعندما أسرَّها بفكرته الطائشة تلك، عارضتها بشدة، لكنه أقنعها بأنه يستطيع أن يتخرج من المعهد ويكون من العشرة بالمئة الأوائل، فيتاح له دراسة الهندسة في جامعة البصرة.

لم ينقضِ كثيرٌ من الوقت، حتى نال مراده وظهرت نتيجة قبولهما في المعهد الفني معا.

-٣-

كان القدر يخبئ له أمراً غير سار هز كيانه، وقلب له حياته رأساً على عقب. فقد تقدم لخطبة (هيام) قريب لوالدتها، وقد وافقت أمها؛ لأنها اعتقدت بأنه رجل مناسب جداً لابنتها، كونه يعمل مدرساً وميسور الحال ويملك داراً، والأهم من ذلك كله؛ أنه قريبها، ووعدها بأنه إن تزوجها؛ فلن يقف حائلاً بينها وبين متابعة دراستها.

أصيبت(هيام) بالصدمة؛ حينما علمت أن أمها أبدت موافقتها لطلبه دون أن تأخذ رأيها. فرفضت وتمنعت وقالت لأمها:

- لا أفكر بالزواج الآن، ولاسيما أني ما زلت مرهقة من الدراسة.
- الزواج ستر يا ابنتي، وهو فوق كل اعتبار. أنتِ لا تعرفين مصلحتك، العريس الذي تقدم لخطبتك لا يمكنني التفريط به، وعلى أي حال من الآن وإلى أن يحين موعد الزواج سيكون أمامك عدة أشهر. ولك أن تأخذي كفايتك من الراحة.

فاحتجت قائلة:

- ولِمَ اختارني أنا بالذات؟ أليس الأولى أن يتقدم لخطبة (إبتسام)؟ أليست هي الكبرى؟

- الرجل موظف ويريد الارتباط بموظفة، وأختك لم تكمل تعليمها، أما أنت فبوسعك الحصول على وظيفة منذ هذه اللحظة. ثم إن القلب وما يريد يا ابنتي.

لم يتبق (لهيام) سوى مصارحة أمها فقالت:

- إذا كان الأمر يخص القلب، فقلبي لا يهواه.
- أرى أنك تخفين شيئاً عني أيتها اللعينة. من الأفضل لك أن تصارحيني بلا مخاتلة.
- هنالك شخص يهواه قلبي، وأظنه هو الشخص المناسب.
- ومن يكون ذلك الشخص؟

ترددت قليلا قبل أن تبوح لأمها:

- إنه(سمير)، ابن جيراننا.

هزت (أم باسم) رأسها مبدية حسرتها:

- أين عقلك يا ابنتي؟ إنه لا يزال في أول الطريق، وإلى أن يكون مهيأ للزواج تكوني أنت قد عنست.
- لكني أحبه يا أمي.
- الحب مجرد وهم سرعان ما يتبدد، إما بسبب الحياة، أو بسبب الموت. ما الذي جنيته من حبي لوالدك الذي فضّلته على آخرين تقدموا لخطبتي كان أحدهم ميسور

الحال، وتعهد أن يلبسني حلي ذهبٍ تعادل وزني، كلهم رفضتهم من أجل والدك الذي أحببته، ليرحل هو ويتركني مع ابنتين، وتقاعد لا يكاد يكفي. سيأتي الحب لاحقاً إن استطاع زوجك أن يسعدك. وقد تقدم إليك من يمتلك مقومات السعادة، وهو المال. دعكِ من لعب الأولاد.

وجدت نفسها عاجزة أمام إصرار أمها، فلجأت إليه لتخبره بالأمر. فاكفهرت الدنيا في عينيه واسودت. رجاها أن تصمد وتماطل قليلاً، ليكسبا بعض الوقت ريثما يفاتح والديه ويتقدم لخطبتها، وأكد بأن والدتها لن ترفض طلب أهله بحكم العلاقة المتينة بينهما.

تكلم بهذا الشأن مع والدته التي اعتقدت أنه يمازحها في بادئ الأمر، ولكن ارتجاف الصوت الخارج من حنجرته والانكسار البادي في عينيه أنبأها أن ابنها مأخوذ بسطوة الحب فهدَّأتْ من روعه قائلة:

- لن أكذب عليك يا ولدي، يبدو الأمر وكأنك تخوض سباقاً للركض برجل عرجاء. ومن دون مشورة أبيك، لا أستطيع أن أُقدم على أي شيء.

ويبدو أن النكد لا يأتي على دفعات، فلم يكن من المؤمل قدوم

والده الذي سيق إلى أحد قواطع الجيش الشعبي، في وقت مبكر.

كان كالملدوغ يبحث عن ملاذ لمحنته، ولم يجد غير جده ليلتجئ إليه:

- جدي، أريد التكلم معك بأمر مهم. في الحقيقة إنه متعلق بموضوع زواج.

فقال له بخبث ممازحاً:

- ولكني يا ولدي لم أعد أقوى على الزواج، بمثل هذه السن.
- ما زلت في ريعان الشباب يا جدي، لو أُعطيت بندقية، لكانت لك مع العدو صولات وجولات.
- يا ولدي مواجهة العدو أسهل بكثير من مواجهة امرأة، فعدوك على الأقل تعرفه، وتكون محتاطاً منه؛ أما المرأة فلا يمكنك التكهن متى تنقلب عليك، وتصبح عدواً. ولكن دعنا من هذا الآن وقل لي. هل تحبها؟
- أكثر من روحي.
- وهي؟
- مثله وأكثر.

أطلق الجد تنهيدة ورمى بصره نحو صورة زوجته الراحلة

المحشورة عند زاوية مرآة دولاب الملابس القديم الذي اشتراه من نجار يهودي قبل ستة عقود. وقال:

- الحب يسري في عروقنا، مثلما تسري فيه الخدمة في الجيش. أنا أيضاً أحببت جدتك. كانت في الرابعة عشرة من عمرها، وكنت أنا في العشرين، انبهرتْ بقوامي وبقيافتي العسكرية ووقعنا في شراك الحب. وكان لها ابن عم ينازعني عليها، ولكني سويت الأمر معه بالتهديد والمال، دفعت له عشرين رُبية ليتنحى، وكان حينها مبلغاً غير قليل؛ لكن جدتك كانت تستحق تلك التضحية، عشت معها أربعين عاماً لم أرَ منها إلا كل خير.

هذه القصة كان قد سمعها عن جده من قبل، مرات عديدة، ولكنه دهش لأن ثمة تشابه في حكايتيهما، وهو وجود الند. رصد الجد شرود ذهن حفيده فسأله:

- من تكون؟ هل أعرفها؟
- (هيام) ابنة جارتنا.
- فتاة خلوقة وجميلة، تعرف كيف تختار مثل جدك. ولكن ما الذي بوسعي فعله لأجلك.
- بوسعك أن تحث والدتي لتخطبها لي.

كانت شمس أيلول اللاهبة، ترسل حممها إلى الأرض وتجبر الناس على الانكفاء داخل بيوتهم وأَخْذِ قيلولة في ساعات الهجير. كان نائماً قبالة مبردة الهواء، عندما تناهت إلى أسماعه، زغاريد نساء قادمة من بيت (هيام). كان الأمر قد قضي، فقد خطبت(هيام) لقريبها المدرس.

لم يصدق ما جرى، وظن أن ما سمعه، مجرد حلم، أيعقل أن تبيعه(هيام) من أجل الثروة التي يمتلكها قريبها؟ هل تتقوض علاقتهما التي دامت خمسة أعوام بين ليلة وضحاها، هكذا وبكل بساطة!؟

صعد إلى سطح داره مترقباً رؤيتها رغم أنه يعلم أن الوقت ما يزال مبكراً بعد؛ بسبب وقدة الحر، لكن الحرارة المستعرة في قلبه المضطرم كانت أشد وأقوى، كان يتلهف لرؤيتها وأن يتحدث معها. أن يثنيها عن ذلك القرار، ويذكرها بحبهما. انتظر طويلاً، وهو يلوذ بالظل اليسير الذي يوفره الحائط الفاصل بين سطحيهما، من لسعات الشمس. ثم سمع صوت أقدام على الجهة الأخرى من الحائط. نهض ومد عنقه لتصطدم عيناه بعيني أمها. كانت تعرف ما يجول بخاطره، ولأنها تحبه كأحد أبنائها بسبب العشرة بين العائلتين، قالت له بصوت يفيض حناناً ودفئاً:

- ولدي سمير، دع الفتاة ترى دربها. أنت ما زلت في مقتبل العمر، وستجد لنفسك زوجة تسعدك عندما يحين الوقت.

لم يجبها، فقد تكفلت دموعه بذلك. وهام على وجهه من فرط الصدمة يلتمس وسيلة لنسيان عدم وفائها وغدرها به.

كان ملتاعاً ومكلوماً، ينشد محو كل شيء من ذاكرته، فاشترى زجاجة نبيذ أحمر من (أورزدي باك) وجرب ولأول مرة في حياته شرب الخمر. جلس في غرفته التي يتشاركها مع شقيقه(منير) ذي الأربعة عشر ربيعاً الذي كان يشك بوجود شيء ما بين شقيقه و(هيام)، ولكن بدا له الأمر واضحاً الآن. فلم يشأ أن يتركه في حالته تلك. أتى على شرب زجاجة النبيذ كاملة بجرعتين. وسرعان ما ثمل وتهيجت مشاعره وتحولت إلى رغبة محمومة للانتحار. كسر الزجاجة وكان على وشك قطع شرايين معصمه لولا أن منعه شقيقه.

مضى أسبوع عليه وأصبح كشخص ممسوس، ثم جاء ابن عمه الذي جلب له مجموعة من بطاقات دعوة لحضور حفل زفافه الذي سينعقد بعد ثلاثة أيام، ليساعده في تفريقها على معارفهم. ولما رأى الوضع الذي كان عليه (سمير)، كلمه من أجل تطييب خاطره قائلاً:

- يا أخي يا(سمير)، يا أيها المتعلم الدارس، سلني أنا عن النساء، فقد علمتني الحياة أنهن غادرات وغير وفيات. لو كانت صادقة في حبها لك لما كان بوسع أحد أن يرغمها على فعل شيء مخالف لإرادتها. ولو تطلب منها رفض ذلك الشخص الذي خطبها الانتحار، لفعلت. ولكنه طبع الغدر والخيانة المتأصل فيها هو من دفعها لتبيعك مع أول خاطب ميسور الحال تقدم لطلب يدها. خذ نصيحتي النساء لا يصلحن لغير الفراش والضرب، حاشا أمهاتنا.

كان لحديث ابن عمه وقع غريب عليه، فجأة شعر أن كل الحب الذي استوطن قلبه قد تحول إلى كتلة من الكراهية. ارتسمت على وجهه ابتسامة مهادنة وبدا وكأن الوجع والخيبة غادرا روحه المكلومة، ولكن في داخله كانت ثمة رغبة محمومة في الانتقام. نعم سينتقم لنفسه ولمستقبله الذي هدره من أجلها، انتقاماً يتناسب مع مقدار الخيبة التي سببتها له.

قادته فكرة شيطانية للإيقاع بها، وألا يدع خطيبها ليكون أول رجل ينال عفتها.

شعر بالحماسة والطاقة تتأجج بداخله، فنهض ليحلق الشعر النابت على وجهه. وأخذ يتربص صعودها إلى السطح

لتنشر غسيلها، غير آبه بلسعات الحر، وأخيراً لمحها قادمة، فحياها برقة، وقال لها:

- (هيام) أريد التحدث معك بموضوع هام.

جفلت سماعها صوته. صوبت نظرها نحوه، وهي ترتجف من شدة الارتباك، وردت عليه:

- (سمير)! أرجوك، لا تضعني في موقف حرج وأصعب مما أنا عليه الآن.
- أنا أعلم بوضعك صدقيني، أعلم أنهم أجبروك. فليس من المعقول أن تمحي ذاكرة خمسة أعوام من الحب، لو لم تكوني مرغمة. أعلم أني هو حبك الأول والأخير. لا أريد سوى لقائك؛ لأتحدث معك ولو لخمس دقائق. ما زلت أنتظر عودة أبي من الجبهة لأكلمه، عله يجد لنا مخرجاً.

كانت تشعر بالذنب حياله، فهو كان وفياً وصادقاً معها. وكان سيطلب يدها، لولا إصرار ذلك القريب الذي ظهر فجأة، وقلب حياتها رأساً على عقب. ولكنها أحست بعد كلامه الرقيق والذي بدا فيه متفهماً لموقفها، بأنها تحررت من عقدة الذنب تجاهه. فقالت:

- ولكن لا ينبغي لي ذلك؛ فأنا الآن مخطوبة.

- آها، قلتها بنفسك، مخطوبة، ولست متزوجة. خمس دقائق لا غير.

كان تفكيرها متأرجحاً بين نداء قلبها وبين نداء الالتزام الذي يمليه عليها ذلك الخاتم الذي لبسته قسراً. كان صوت الحب بداخلها أقوى من صوت رجاحة عقلها، لن تستطيع قطعة الذهب الصغيرة هذه أن تَحُول بين قلبها وبين الإنسان الذي تحبه. وبعد لحظة صمت، قالت:

- متى؟
- بعد ساعة من الآن، سيذهب الجميع لحضور حنة ابن عمي، وسأتخلف أنا، سأعلمك عندما يغادرون
- لا داعي لأن تُعْلمني فوالدتي مدعوة أيضاً وستذهب مع أهلك.
- حسنا، سأكون في انتظارك.

جاءت(هيام)إلى عرينه خالعة خاتم خطوبتها، فلم ترغب أن تحزنه رؤيته، وهي تضعه في إصبعها. أمسك بيدها وجذبها برفق نحو صدره، ذلك الصدر الذي طالما شعرت بدفئه وهو يحتضنها لتختزل سعادة الكون كله عند تلك المساحة من الجسد. ثم قادها إلى فضاء السعادة الغامرة التي شلت لها تفكيرها. فنضا عنها ثيابها وتوغل إلى المكان المحظور من

جسدها، وتم له ما أراده من انتقام لروحه المكلومة.

بعد أن استفاقت من حلمها الجميل، وأدركت أنها انزلقت بعيداً، أخذت تلطم وجهها وتندب حظها العاثر. كانت ترنو إلى وجهه، ترجوه أن يرتق ما انفتق. لامته بنفس منكسرة:

- (سمير) ما الذي فعلته؟

لكنه وقف منتصباً ورمقها بنظرة متشفية، وقال:

- ما هو إلا جرح بجرح، لقد استلبت مني قلبي ومستقبلي، وأنا استلبت منك عفتك.

غادرت منكسرة تجر أذيال الخيبة بعدما يئست منه والدموع تسيل من عينيها. أما هو، فقد ابتسم ابتسامة زهو بعد أن انتصف لنفسه. لتذهب هي إلى الجحيم، بل هي وأمها وخطيبها. سيُضيِّع على تلك اللعينة فرصة الزواج مثلما ضاعت منه بسببها، فرصة دخول كلية الهندسة.

عاد والده من القاطع وساءه أن نتائج القبول في الجامعات لن تمكن ابنه من دخول الهندسة، بل وحتى دخول أي كلية أخرى، رغم معدله الذي يؤهله لذلك. وكان المخرج الوحيد لتلك المشكلة أن يسافر ابنه للدراسة في الخارج. فوقع اختياره على البوسنة لإكمال دراسته.

-٤-

من النادر جداً أن تعرض دور السينما الأربعة في (بانيالوكا) أفلاماً هندية. وإن حدث ذلك فإنها تلاقي إقبالاً جماهيرياً منقطع النظير؛ بسبب المشـاهد المترعة بالعواطف التي تفتقر لها أفلام الإثارة الغربية، فتجد المشاهدين لا يتمالكون أنفسهم عن البكاء عندما تنتهي القصة بموت البطل أو البطلة أو بلقاء أم بولدها الذي فقدته منذ الصغر.

كان قد اتفق مع (مارينا)، على أن يلتقيا في اليوم التالي عند الساعة الثامنة مساء، أمام سينما (كوزارا) التي تعرض فيلماً هندياً أحدث ضجة كبيرة وأصبح حديث الساعة عند الناس.

لكنه فوجئ مساء ذلك اليوم باتصال(ساندرا) به وألحت عليه لمشاهدة الفيلم الهندي. فقال لها:

- لا بأس، أيناسبك يوم الخميس؟
- آخر أيام العرض هو الأربعاء. ماذا عن يوم غد؟

كان وقته مزدحماً بالمحاضرات يوم الأربعاء، ولم يتبق له من خيار، سوى يوم الثلاثاء الذي كان قد تواعد فيه مع (مارينا) لمشاهدة الفيلم، ولا يمكنه بأي حال من الأحوال إلغاء الموعد، وفي المقابل ها هي (ساندرا)، تحاصره وتحشره في زاوية

ضيقة، ولا يمكنه التملص منها بسهوله، كما يفعل مع (ميلانكا)؛ لذا تواعدا على مشاهدة الفيلم في دور الساعة السادسة، على أن يلتقيا قبل بدء العرض بساعة للحصول على تذاكر قبل أن تنفد.

كان منزعجاً من فكرة مشاهدة فيلم هندي مرتين في يوم واحد. تذكر أنه فعل ذلك في صغره عندما عُرض فيلم (سنكام) أكثر من مرة، في سينما النصر القريبة من دارهم، حتى حفظ بعض الحوارات عن ظاهر قلب. ولكن ليس في يوم واحد ولعرضين متواليين.

حضرت (ساندرا) في الموعد، ووقف في صف طويل عند شباك قطع التذاكر، وقبل دخولهما صالة العرض تنبه إلى أنه سيقع في مأزق حقيقي، إن لم يتمكن من الحصول على تذاكر العرض التالي له ولـ(مارينا) والتي لا تشرع إدارة السينما ببيعها إلا بعد أن يبدأ العرض الحالي. وكانوا يفعلون ذلك لكي يقطعوا الطريق أمام المضاربين في السوق السوداء. لكن الفرج أتاه عندما لمح صديقه الفلسطيني (فادي) يقف متنحياً على جنب، وكان قد حضر مبكراً ليؤمِّن الحصول على تذاكر عرض الساعة الثامنة التي لم يحن وقت بيعها بعد. شرح له(سمير) الموضوع وطلب منه شراء تذكرتين وأن يبقيهما معه لغاية

خروجه من العرض الحالي؟

فضحك قائلاً:

- أنت تضع نفسك في مأزق حقيقي!

دخلا صالة العرض وكان الفيلم هندياً بامتياز وتخللته نحو عشرين أغنية، لكن قصته المشحونة بالعواطف الحزينة كانت ترغم (ساندرا) على البكاء بين الفينة والأخرى.

الأفلام في الغالب تستغرق ما بين خمس وسبعين وتسعين دقيقة، ولا تكون أكثر من ذلك إلا في أفلام القصص الملحمية مثل (ذهب مع الريح)، أو فيلم (الرسالة). لا بد وأن مسألة الوقت لم تأتِ اعتباطاً، بل هي خاضعة لاعتبارات نفسية ومادية، لذا فإن جميع دور السينما تعرض الأفلام بفاصلة ساعتين بين عرض وآخر.

أخذ القلق ينهشه؛ لأن الوقت بدأ يدركه، والفيلم لم ينته بعد. وكان بين الفينة والأخرى يتحرى عن الوقت في ساعته التي بالكاد يستطيع رؤية عقاربها بسبب الظلام الشديد. وعندما انتهى العرض وأنيرت الصالة كانت الساعة تشير إلى الثامنة إلا عشر دقائق. فانطلق مسرعاً للخروج من الصالة حتى أنه اضطر للتدافع ليكسب الوقت الذي بدأ يدركه.

لاحظت(ساندرا) تعجله للخروج من الصالة فسألته عن السبب،

فبرر لها ذلك بأن عليه الوصول إلى السمكري الذي يصلح سيارته قبل أن يقفل محله.

كان يتوجب عليه، أيضاً مرافقة (ساندرا) مسافة قصيرة تحتمها العادات السائدة، قبل أن يودعها ويقفل راجعاً بسرعة إلى دار العرض، فوجد(مارينا) تقف وحيدة بينما دخل الجميع.

كانت تنتظره وبحوزتها التذكرتين اللتين أعطاهما إياها (فادي) بعد أن اضطر هو للدخول. فاعتذر عن تأخره، وهو يحاول كتم لهاثه:

- آسف جداً عن التأخير، كان ذلك بسبب السمكري.

فلم ترد عليه.

داخل الصالة توالت الدقائق مضجرة إلى حد كبير، ولم يقو على النظر إلى شاشة العرض، التي أخذ سطوعها يشعره بصداع مؤلم، فراح يتسلى بإدخال يده داخل قميص(مارينا) يتحسس تضاريس جسدها ونتوءاته.

وعندما خرجا من الصالة أخيراً تنفس الصعداء. عرض عليها الذهاب إلى منزله، فردت طلبه بلطف، متذرعة بالتعب. ولأن الصداع لم يبارح رأسه فقد بدا له ذلك مناسباً أيضاً. أوصلها إلى باب عمارتها، وودعته بقبلة فاترة، ولم تحدد موعداً للقائهم التالي كما جرت عليه العادة، بل تركت الأمر مرسلاً:

- سنتواصل هاتفياً.

مضى أكثر من أسبوع ولم يتلق منها اتصالاً، فبادر هو الاتصال بها وسألها:

- (مارينا)، أين أنت؟ لماذا لم تتصلي بي طيلة تلك الفترة؟
- إنني أتأهب للذهاب للإقامة مع شقيقتي في (زغرب) فقد حصلتُ على فرصة عمل لي هناك.

كان ذلك خبراً صادماً له، بيد أنه أخفى مشاعر الحزن التي اعترته ولم يكن بوسعه سوى تهنئتها، قائلاً:

- مبارك لك. ولكن من الضروري أن أراك لأودعك.
- لك ذلك، سأتصل بك لاحقاً.

لكنها غادرت دون أن تودعه، وكان تصرفها ذلك محيراً. رغم إدراكه بأن علاقتهما قد انتهت.

كانت امتحانات الدور الثاني على الأبواب. فأبلغ (ساندرا) و(ميلانكا) بأنه لا يستطيع مواعدتهما لأسبوعين كاملين إذ يتوجب عليه التفرغ للدراسة. وبينما تفهمت (ساندرا) وضعه، فإن(ميلانكا) لم تتقبل الأمر بسهولة، فبعد يومين فقط، اتصلت به لتخبره بأنها ستعرج عليه، فقال لها بشكل قاطع وحازم:

- ذلك غير ممكن. يتوجب عليَّ الدراسة.

- لساعة واحدة فقط أعدك. أريد أن أشارك في معرض للوحات، وقد وجدت وجهك ملائماً ليكون مادة للوحتي.

لا يعلم كيف استطاعت(ميلانكا)أن تقنعنه، ربما لأنها دغدغت الأنا الكامنة بداخله، فقال لها:

- حسناً، لساعة واحدة لا أكثر.

جاءت إليه عصر ذلك اليوم، وشرعت بتثبيت لوحها وأخذت ترسمه. ولم تمض سوى عشر دقائق، حتى أخذت تتودد إليه، ليلفي نفسه وهو يطارحها الفراش.

كررت الأمر ذاته في اليومين التاليين، فأحس بأنها تخدعه بموضوع الرسم، وأنها ترغب فيه هو. شعر بأنه أصبح مجرد محظية لها.

في اليوم التالي قَدِمَتْ كذلك، وقبل أن تبدأ بالرسم وجد نفسه يبادرها بنقد لاذع لرسمها قائلاً:

- (ميلانكا)، من ضحك عليك وأخبرك بأنك رسامة؟ فما ترسمينه لا يمت لشكلي البتة، أنت لست بارعة في الرسم، فالرسم يتطلب موهبة، ولا تكفي دراسته أكاديمياً ليصبح المرء رساماً.

كان كلامه قاسياً جداً وجارحاً، فهي حقاً، رسامة ماهرة، ولكن عيبها الوحيد أنها كانت متذللة وخانعة، ولديها فكرة بهيمية

وهي أن أس العلاقة بين الذكر والأنثى هو الفراش وممارسة العلاقة الحميمية.

كانت ستتقبل منه أية إهانة أخرى، ولكن أن يمس مهارتها بالرسم فذلك شيء آخر. ثارت حفيظتها ومزقت الرسم وغادرت مغضبة.

ولكن فورة حنقها خمدت بعد يومين، فاتصلت به تعتذر عما بدر منها من تصرف غير لائق، ورجته أن يتقبل اعتذارها.

كان يريد ترتيب حياته ودراسته ووجد أنه ليس من المناسب أن يستمر بهذه الفوضى، فما الفرق بين فتاة وأخرى؟ و(ساندرا) تكفيه وتناسبه، ولاسيما أنها غير لجوجة مثل (ميلانكا). فقال لها بشكل قاطع:

- انسي موضوع علاقتنا. فكل شيء بيننا قد انتهى.

حاولت جهدها أن تسترضيه بكل وسيلة، لكنه أغلق بوجهها الهاتف.

بعد أسبوعين أنهى امتحانات الدور الثاني وبقي يترقب بقلق خروج النتائج.

الجو معتدل الحرارة في الخارج عصر ذلك اليوم، وكان حينها في البيت الذي أجره مؤثثاً منذ مجيئه إلى المدينة في شارع (ميشو ستوپارا) الذي لا يبعد كثيراً عن كليته ومركز المدينة

أيضاً، كان البيت يشغل الطابق الأرضي من بناية من طابقين، بينما شغل المالك الطابق العلوي منها. كان عبارة عن صالة واسعة فيها كرسيان بمساند جانبية للجلوس مع أريكة وثيرة تسحب لتصبح سريراً للنوم وفي طرفها القصي ثمة مطبخ أنيق مع طاولة وأربعة كراسٍ.

كان يتفرج على التلفاز مستلقياً على الأريكة التي سحبها، عندما قُرِعَ جرس الباب، فتفاجأ بـ(جاكلين).

كانت تلك هي المرة الأولى التي تزوره فيها لوحدها دون أن يصحبها (علاء).

تركت المقعدين، وجلست على الأريكة، فاستأذن منها ليسويها، فقالت:

- أنا مرتاحة هكذا، لا تتعب نفسك.

لم تنتظر طويلاً لتخبره بأنها أتت للتوسط بينه وبين ميلانكا، وتريد معرفة السبب الحقيقي وراء إصراره على قطع علاقته بها. فأكد لها بأن الموضوع مفروغ منه، ولا تجدي المحاولة معه، ليعدل عن قراره.

بقيت ملازمة مكانها رغم أنها يئست من مسألة التوفيق بينه وبين (ميلانكا)، ولم تتطرق إليه ثانية، بل تكلمت بأشياء عامة. ولم يفته ملاحظة رغبتها بالبقاء فأعد لها فنجان قهوة.

قالت له وهي ترتشف قهوتها:

- لا أعرف كيف يتسنى للمرء أن يطيق المكوث وحيداً في المنزل، لولا وجود التلفاز؟
- هذا صحيح، عندي أشياء كثيرة، شطرنج ودومينو وورق لعب، ولكن ليس بوسعي اللعب مع نفسي.
- وأي لعبة تفضل أن تلعبها في الورق؟
- لا توجد لعبة لا أعرفها تقريباً، لكن لعبة الواحد والعشرين ممتعة لأنها سريعة.
- هل ترغب اللعب معي؟

رغب أن يجاريها ليعرف إلامَ تصبو فقال:

- حسنا ولكن عليك أن تعلمي بأنني بارع في اللعب.
- أقبل التحدي، فأنا أيضاً بارعة فيه.

جلب الورق، وقبل أن يشرع بتوزيعه، قال لها محاولاً أن سبر غورها:

- هل نلعب من رهان، أم هكذا فقط؟
- الرهان يجعل اللعب أشد إثارة، على أي شيء تود أن نتراهن؟

كان قد لمح في عينيها بريقاً مخاتلاً، فحاول أن يستغل الموقف فقال لها:

- ليكن رهاننا من قبلة لكل دور نلعبه، الغالب يقبل الخاسر.

قالت وهي تبتسم:

- أيها المخادع، ستكون أنت المستفيد في الحالتين.
- ولم لا تكوني أنت المستفيدة من ذلك؟

ضحكت بخبث، وهي تقول:

- حسناً، إنني موافقة.

فرق الورق وقد تيقن إلى ماذا ستؤول الأمور. لعبا عدة أدوار، خسر بعضها، وفاز بالأخرى. بعدها قالت:

- لقد اكتفيت.
- هل سنسدد الرهان إذاً؟
- كما تشاء.

لم تكن(جاكلين) فائقة الجمال ولا شقراء، بل كانت حنطية البشرة، شعرها أسود قصير، وعيناها بنيّتان لعوبتان. ولكنها ذات قامة فارعة وبجسد يضج بالتضاريس المغرية التي لا تتناسب مع سنها.

- بعد ساعة نهضت لارتداء ملابسها، وتهيأت للمغادرة. وقالت:
- عليَّ الذهاب الآن، سنبقى على اتصال.

- وماذا عن (علاء)؟
- لا أستطيع تركه، فقد عرض عليَّ الزواج حالما أبلغ الثامنة عشر، الأمر الذي لا يمكنني التفريط به.
- إذن سأكون أنا محطة استراحة.
- لن تمانع أليس كذلك؟

قال لها وهو يبتسم:

- ضيوفي محل ترحاب دائماً.

بعد أن غادرت شعر بالذنب وتبكيت الضمير، بسبب خيانته لـ (علاء). فإن كان يريد أن يثبت لنفسه أن جميع النساء خائنات فهذا شيء سبق وأن أدركه، ولكنه بفعله هذا خرق قاعدة أخلاقية مهمة، فما كان ينبغي علية خيانة صديق.

في نهاية المطاف، أقنع نفسه بأنه ليس أكثر سوءاً من(علاء) الذي كان مغفلاً وأخطأ في اختيار فتاة لا وفاء لها؛ ثم ما الذي يردع (جاكلين) من خيانته مع شخص آخر؟

بعد يومين ظهرت النتائج وكانت محبطة، فقد انتهى العام الدراسي بالفشل. ولم يكن هو الأمر السيء الوحيد الذي واجهه، بل إن (ساندرا) التي أنهت دراستها الإعدادية، ذهبت لتواصل دراستها الجامعية في مدينة (سرايڤو).

- ٥ -

شهر تشرين الأول في (بانيالوكا) يجنح إلى البرودة، ولكنه يبقى مشمساً وجميلاً في الغالب، والدراسة في الكلية لم تبدأ بعد.

مضى عليه أسبوع كامل معتكفاً في المنزل لا يخرج فيه إلا لشراء احتياجاته اليومية من المتجر الذي لا يبعد سوى بضعة أمتار عن سكنه، كنوع من العقاب، وجلد الذات، لأنه أخفق في دراسته. ماذا سيقول لوالده الذي يترقب بلهفة لحظة تخرجه من كلية الهندسة التي تستنزف جيبه منذ عامين؟ هل يقول له ابشر يا أبي لقد حققت مبتغاي بالاقتصاص من بنات حواء؟ ألم يأتِ إلى هذا البلد بسبب إحداهن؟

لكنه شعر تلك الليلة بحاجة لينفض جو الدراسة المخيب الذي لازمه طيلة الفترة الماضية، والخروج من عزلته التي فرضها على نفسه.

كان متفاجئاً لأن معظم ملابسه أصبحت ضيقة عليه لأن وزنه ازداد بضعة كيلوغرامات بسبب قلة الحركة والميل الغريزي نحو الإفراط بالأكل عندما يكون الإنسان مأزوماً. ملابسه الشتوية وحدها كانت ملائمة بسبب قياساتها التي تكون عادة أكبر؛

لكي تسمح للشخص، ارتداء ملابس داخلية أثخن تحتها. ارتداها من غير ملابس داخلية وقرر ترك سيارته، مفضلاً المشي عليها.

لم يكن في باله مكان محدد ليقصده، بالنسبة لشخص غير مرتبط بفتاة؛ سيكون هدفه الرئيس هو البحث عن علاقة جديدة مع فتاة ترمم له الضفة الأخرى من الخيبة على أقل تقدير. وإن لم يفعل ذلك فسيشعر بعزلة حقيقية، فعلاقات الصداقة في هذا المجتمع تتحسر على الأغلب، أمام العلاقات الحميمية بين الجنسين. الصداقات الحقيقية بين الذكور تتشكل فقط عندما يخدمون في الجيش أو بعد الزواج بعدما تترهل العلاقة الزوجية.

سار على طول الرصيف من فندق البوسنة لغاية حديقة (بيتر كوچچ)، دون أن يلتقي شخصاً يعرفه، فتحول إلى الجهة الأخرى من شارع (الماريشال تيتو)، وهناك صادفه (بسيم هوجيچ)، زميله في الدراسة وهو يسير يطوق خصر فتاته بيد، بينما يده معصوبة بضماد، فتوقف وحياه، ثم سأله:

- أراك لوحدك!

كان سؤلاً بريئاً، لكن (سمير) شعر بوخزة هزَّت كبرياءه. وتهرب عن الإجابة وسأله عما أصابه، فأخذ يشتم:

- كله بسبب تلك الهزة الأرضية (ال...) التي حدثت ليلة البارحة، فقد تعثرت وأنا أحاول الهروب من بناية القسم الداخلي.

ضحك(سمير) وهو يقول:

- أما أنــا فتصرفت كالنعامة، غطيت رأسي ببطانيتي عندما شعرت بها.

هذا لأنك تسكن في منزل. الوضع مختلف عندما تعيش في بناية متعددة الطوابق

(توثقت علاقته بـ(بسيم) قبل ثلاثة أشهر، تحديداً عندما اتفق مع(علاء)على زيارة المتنزه الوطني الكرواتي (پليتڤيچكا يزيرا) الذي يبعد قرابة مائتي كيلومتر؛ في عطلة نهاية الأسبوع. وكان هو من مدينة تقع في الشمال الغربي للبوسنة تسمى(تسازين) تقع على الطريق المؤدي إلى المتنزه، قبله بمسافة ثلاثين كيلومترا. كانا بحاجة إلى دليل، وهو بحاجة إلى توصيل مجاني، فانطلقا ذلك اليوم، وكان من المفترض الوصول عصر ذلك اليوم إلى المتنزه الوطني والمبيت فيه ثم العودة في اليوم التالي؛ إلا أن عاصفة ثلجية داهمتهم في الطريق، وأخرتهم كثيراً، فتصرف (بسيم) بكرم، ودعاهما للمبيت عنده.

تلك الليلة تلقيا حفاوة بالغة من أمه(فاتيما) التي حدثتهما بأنها سُميت على اسم (فاطمة الزهراء)، وأنها تعلمت اللغة العربية وعلوم القرآن، في المدرسة الابتدائية الإسلامية، ولكنها نسيت معظم ما تعلمته. وتكلمت عن مظلمة مسلمي البوسنة(البوشنياك) من قِبَل الصرب والكروات على حد سواء خلال الحرب العالمية الثانية التي عاصرت أحداثها، والمحاكمة التي تجري لخلية الإخوان المسلمين، التي يترأسها (علي عزت بيگوفيچ)؛ ثم قالت بأنها لن تسمح لأي واحد من أولادها؛ أن يتزوج غير مسلمة ويدخلها إلى هذا البيت. ليفعل ذلك إن أصر؛ بعيداً عنها، ولكنه لن ينال رضاها عنه؛ مادامت حية.

كان(بسيم)، يبدي اعتراضه على تفكيرها الذي يعتبره أسير عُقَد الماضي الذي ولّى، فهو يقيم في القسم الداخلي، بالشراكة مع زميلين آخرين، أحدهما كرواتي، والآخر صربي، ولا يجد أي حدود فاصلة بينهم، لكن فتاته كانت مسلمة، وقد تكون تلك مصادفة أو امتثالاً لرأي أمه).

انصرف(بسيم) مع فتاته، فعندما يخرج الشاب مع فتاة لن يكون هنالك متسع لصديق، إلا إذا كان هو الآخر برفقة فتاته، وتوجه(سمير) إلى النادي الليلي الذي يقع في قبو فندق(بلاس)،

ويحمل ذات الاسم، وهو المكان الذي كان يتردد عليه مع (مارينا) في السابق.

كانت صالة الرقص في النادي، مزدحمة بالأجساد التي تكاد تلتصق ببعضها وهي تتماوج مع الموسيقى الهادرة؛ والهواء فيها أفسده دخان السجائر؛ فآثر الخروج إلى الصالة الملحقة التي وضِعَتْ فيها أجهزة لعب (فليبر) التي يسدد فيها اللاعبون، كرة معدنية نحو مواقع محددة، تمنحهم نقاطاً؛ شريطة أن يمنعوا الكرة من الانزلاق إلى الأسفل. وهناك تصادف مع (يَلَنا)التي كانت تجلس بمفردها.

كان بحاجة إلى رفقة، وليس أكثر من ذلك، على الأقل ليس مع (يلينا)، فحياهاوجلس معهاودار الحديث بينهما عن(مارينا) التي انقطعت أخبارها عنه. فقالت له:

- إنها بخير. لقد جاءت في زيارة قصيرة لأهلها قبل أسبوعين.

تفاجأ لأنها لم تفكر بإلقاء التحية عليه، ولو عن طريق الهاتف. لكن(يَلَنا) انتبهت لذهوله، وقالت:

- (سمير)، هل تريد أن أفشيك سراً يخص (مارينا)؟

توقع أنها ستخبره أن(مارينا) ارتبطت بشخص آخر وهو المبرر الوحيد الذي يفسر تجاهلها له على هذا النحو:

- وما هو؟
- تلك الليلة، أقصد عندما كان يعرض الفيلم الهندي، شاهدتكَ(مارينا)، وأنت تخرج من السينما، برفقة تلك الفتاة ذات الشعر الغجري.

شعر بالصدمة وبفداحة الخسارة التي أحدثها لنفسه، وأشفق على (مارينا) تلك الزهرة المفعمة بالحياء، والتي كتمت في قلبها، علاقته بفتاة أخرى، ولم تتبس ببنت شفة، وآثرت الانسحاب بهدوء من حياته بكبريائها المجروحة؛ فلو أن(ساندرا) ذات الطباع الحادة الغيورة، هي من شاهدته برفقة(مارينا)؟ لما كانت لتتورع عن التسبب له بفضيحة أمام الملأ.

غادرت (يلنا) وبقي جالساً لوحده يحتسي كأسه. كان يشعر بالفراغ والوحدة، وسط هذا المحيط الذي يعج باللقطات الحميمية التي يمارسها عشاق غير آبهين لنظرات الآخرين.

أخذت عيناه تتفحصان كل زاوية على امتداد البصر، ثم فجأة تصطدمان بفتاة كانت تجلس قبالته إلى الطاولة التي تليه، بصحبة شاب أعاره ظهره؛ كانت تتفجر أنوثة وجمالاً مرغمة عينيه على أن تتسمرا صوبها. وعندما تنبهت إلى أن(سمير) ينظر إليها تبسمت؛ فرفع كأسه يحيها، فردت عليه التحية،

بإيماءة خفيفة من رأسها لا يخفى أنها فعلت ذلك خلسة، لكيلا تثير انتباه الشاب الذي بصحبتها. فكانت بداية مشجعة.

بقي في مجلسه ذاك وهو يتمادى بإرسال الإشارات لها واضعاً يده على قلبه، وينبس بشفتيه بكلمة أحبك. أما هي فلم تتمالك النظر إليه، فتشيح بوجهها لتخفي ابتسامتها الرقيقة عن صديقها. ثم حدث وأن نهض الشاب ليذهب إلى دورة المياه، فانتهز الفرصة واقترب من طاولتها، وقال لها:

- هل تؤمنين بالحب من النظرة الأولى؟ حدث ذلك معي للتو.

ارتسم تعبير الأسى على وجهها، وقالت:

- ولكني كما ترى، مرتبطة.
- سأنتظرك ولو أفنيت عمري بذلك. أنا(سمير).
- تشرفت، وأنا (جانا).
- هات رقم هاتفك لأستطيع التحدث معك بحرية، لاحقاً.
- للأسف، لا يوجد لدي هاتف.
- فأين تسكنين؟
- في حي (البوريك).

كان الحي هو ذاته الذي تسكن فيه(مارينا) و(يَلَنا).

- متى أستطيع رؤيتك؟

لم يستطع إتمام حديثه معها، فقد لاح له صديقها قادماً نحوهما؛ فآثر الانسحاب إلى طاولته. أما هما فما لبثا أن نهضا. حيته بيدها، ثم غادرا.

بعد ساعتين، عاد إلى منزله وصورة(جانا)لا تبارح مخيلته. كان يسأل نفسه:(أيكمن السبب في جمالها فقط، أم يغريه كونها مرتبطة بشخص آخر؟).

بقي يتردد على الملهى كل ليلة، ولأكثر من أسبوع، عله يصادفها ثانية، ولكنه لم يحصل على مبتغاه.

في نهاية المطاف فكر أن يسأل (يَلَنا)عنها، علها تعرفها. ولكن حي (البوريك) هو مجمع ضخم من العمارات السكنية البيضاء الشاهقة التي تتدرج في علوها من المنتصف إلى الأطراف. والسؤال عن شخص ما لا يُعرَف غير اسمه الأول ووصفه، أشبه بالبحث عن إبرة في كومة قش.

بعد انقضاء أسبوع آخر صادف(يلينا) وسألها:

- أتعرفين فتاة تسكن في حيّكم تدعى (جانا)؟ شقراء وشعرها قصير(كاريه)، عيناها زرقاوان واسعتان، وتبدو أطول منك بقليل.
- نعم أعرفها كانت معي في الابتدائية. وشقتها في العمارة المجاورة لنا. ولكن لِمَ تسأل؟

- أنا معجب بها، ولا أعرف السبيل للوصول إليها.

وحكى لها ما جرى له معها.

- اترك هذا الأمر لي.

في اليوم التالي اتصلت(يَلَنا) به لتفاجئه بقولها:

- التقيت بـ(جانا)؛ ولكنها لا تتذكر أنها التقت بك، وتحدثت معك، وحتى أنها لا ترتاد ذلك النادي، ولكنها لا تمانع من التعرف إليك.

- حسناً إذن، ادعِها غداً للحضور عندي في الساعة السادسة.

في اليوم التالي قُرع جرس الباب. فذهب ليفتحه، فوجد (يَلَنا) بصحبة فتاة عَرْفَتْهُ بها قائلة:

- هذه (جانا) التي تنشدها.

نظر إلى الفتاة منذهلاً، لم تكن هي التي يبحث عنها، ولكن كانت تشبهها إلى حد كبير، بل إن (جانا) هذه أجمل. قال وهو يصافحها:

- تشرفت، أنا (سمير).

ثم التفت إلى(يَلَنا) ممازحاً:

- ليست هي من قصدت ولكنها تفي بالغرض، فعلى أي حال اسمها (جانا).

دعاهما للدخول وهو يمني نفسه بالفوز بها، فمن النادر أن تكون فتاة بجمالها غير مرتبطة. ولكن شاء الحظ أن(جانا) كانت عائدة منذ بضعة أيام من مدينة ميونخ الألمانية، بعد أن كانت تعمل هناك، لعام كامل؛ وقبل أن تغادر مع (يلينا)، كان قد حدد معها موعداً، للقائهما التالي.

-٦-

مع اقتراب عطلة رأس السنة الميلادية، يأخذ إيقاع حركة الناس بالتسارع، بسبب انخفاض درجة حرارة الجو إلى ما دون الصفر المئوي. وتبدأ بالظهور أكشاك صغيرة تنتشر على جانبي شارع المشاة الذي يقع في قلب المدينة، لبيع كل ما يتعلق باحتفالات رأس السنة من بطاقات التهنئة والهدايا التذكارية والمشاعل وألعاب نارية.

كانت أصوات الموسيقى التي تصدرها آلات التسجيل التي أدارها أصحاب تلك الأكشاك لغرض اجتذاب الزبائن إليهم، صاخبة ومتداخلة لدرجة يخال المرء الذي يسمعها عن بعد، بأنها طقوس يؤديها مقاتلو قبيلة هنود حمر، قبل خوض غمار الحرب.

خلف الأكشاك وقف البائعون مرتدين معاطف الفرو السميكة، يساومون زبائنهم، نافثين مع كل كلمة تخرج من أفواههم، غيمة من بخار الماء المتكثف من شدة البرد.

عطلة رأس السنة هي يومان، ولكنها قد تمتد أحياناً إلى أكثر من ذلك إذا ما صادف ودمجت مع عطلة نهاية الأسبوع. وحينذاك تصيب الناس حمى شراء المواد الغذائية ومتطلبات

الاحتفال لمن يرغب في الاحتفال في بيته.

ولكن لا احتفالاً بالمعنى الحقيقي من دون شريك من الجنس الآخر أو ضمن مجموعة.

كان من المقرر أن يمضي ليلة رأس السنة مع (جانا) و(علاء) و(جاكلين) في منزله؛ ولكن حدث أمر لم يكن في الحسبان. إذ أصيبت (جانا) بمرض التهاب الكبد الفيروسي من النوع المعدي، فقرر الأطباء وضعها في الحجر الصحي في المستشفى لمدة أربعين يوماً. حدث ذلك قبل أسبوع فقط من عطلة راس السنة.

عندما ذهب لزيارتها في المستشفى، لم يسمح له بالتحدث معها إلا من خلال زجاج عازل يفصل بينهما، وآلمه رؤية وجهها الذي طغى عليه اللون الأصفر الذي لم يستثنِ حتى بياض عينيها الناصع. وكان الموقف أشد ألماً بالنسبة لها، بالطبع.

وكان هنالك شيء آخر لم يكن في الحسبان أيضاً، وهو انهيار العلاقة بين (علاء) و(جاكلين) بعد أن اكتشف أنها كانت تخونه مع شخص آخر. وكان ذلك من حسن حظ (سمير)؛ لأنه كان بعيداً عن الشبهات، وكذلك لأن (علاء) أدرك بنفسه أن (جاكلين) التي كان مصراً على الارتباط بها بعد أسابيع معدودة؛ غير مناسبة له، وهو ما عجز عن توضيحه له.

كان(علاء) شاباً وسيماً بطول فارع وشعر نصف مجعد، يتركه مسدلاً لغاية كتفيه. كان مظهره يجتذب الفتيات؛ ولكن كانت لديه خصلتان سيئتان تجعل الفتيات ينفرن منه بعد فترة من العلاقة، أولاهما أنه كان يسكر حتى بالقليل من الشراب، فيتصرف بحماقة وطيش، وثانيهما، أنه مفرط في العاطفة ويتسم بطيبة القلب التي تصل إلى درجة السذاجة أحياناً، فقد تركت أصوله الريفية المتجذرة في إحدى قرى الغراف في جنوب العراق، بصماتها الواضحة في تكوين شخصيته وسلوكه، وعلى الرغم من أن والده انتقل للعيش في بغداد عندما كان طفلاً. إلا أنه سكن في منطقة شعبية تكاد تكون أكثر شبهاً لقريته عن كونها منطقة في العاصمة.

لم تكن (جاكلين) الأولى التي وقع في حبها ونوى الزواج منها، فقد فعلها من قبل مع كثيرات انفرطت علاقته بهن لأسباب عديدة لم تكن من بينها الخيانة. ولكن خيانة (جاكلين) له كانت صادمة، فانطوى على نفسه يعاقر الخمر، وعندما يصل حد الثمالة تتوهج أحاسيسه بنزعة محمومة للبكاء.

أشفق(سمير) كثيراً لحاله ذاك؛ ولأنه يشعر بالذنب تجاهه، فقد قرر إخراجه من أزمته تلك. وفي الآخر استطاع إقناعه بأن يحتفلا بليلة رأس السنة معاً في إحدى الصالات التي تقدم

برامجاً ترفيهيةً خاصةً بمثل تلك المناسبات.

ذرع شارع (الماريشال تيتو)، متوجها إلى فندق (بوسنة)، أفخم فنادق المدينة للحصول على حجز. لكن جميع الأماكن كانت قد حجزت سلفاً. فغير وجهته إلى فندق(بالاس)، ولم يفلح كذلك. قصد جميع دور الاحتفالات، وكانت النتيجة ذاتها. وقبل أن يرجع خالي الوفاض، لفت انتباهه إعلان عُلّق خلف زجاج واجهة وكالة (أطلس)للسياحة والسفر، يتضمن برنامجاً لليلة رأس السنة يقام في مدينة(سبلت)الساحلية. وكان برنامجاً جميلاً، إلا أنه باهض الثمن بعض الشيء، لذلك كانت بعض الأماكن شاغرة، فأجرى الحجز.

في صبيحة آخر يوم من أيام السنة، أقلتهم الحافلة إلى وجهتهم عبر الطرق الجبلية التي غطت سفوحها غابات كثيفة من أشجار الصنوبر والسنديان التي سلبها فصل الشتاء معظم أوراقها، لكنه لم يفقدها منظرها الساحر.

وكان على متن الحافلة ذاتها، سوريان أحدهما يدعى (إسماعيل)، وهو زميل (سمير) في كلية الهندسة، ولكن في مرحلة دراسية متقدمة والآخر كان قريباً له يدعى (مروان) كان يدرس الدكتوراه في دولة رومانيا المجاورة.

الجو عند المدن الساحلية معتدل ويظلل النفس بالبهجة

والاسترخاء، خلافاً لما هو عليه حال المدن البعيدة عن البحر، وكأن وطأة فصل الشتاء البارد الذي يجمد حتى المشاعر، قد تلاشت عند صخور الساحل الجميل، واستبدلته أمواج البحر بفصل الخريف، على الرغم من أن زرقة البحر الادرياتيكي، قد فقدت شيئاً من بريقها.

في الفندق نزل الأربعة في غرفتين متجاورتين. ولأن الوقت كان مبكراً على بدء السهرة لذا آثر الجميع الانتظار في غرفة(سمير). تحدثوا في موضوعات شتى؛ ليجدوا أنفسهم في نهاية المطاف يخوضون في أمور السياسة. تطرقوا إلى الحرب العراقية الإيرانية، والأنظمة العربية وحكامها. وكان(سمير) والسوري(مروان) طالب الدكتوراه، رأسي حربة ذلك النقاش. ولا يعلم كيف خرج عن تحفظه المعهود مع الغرباء، فانتقد قرار الحرب الذي تورطت به الحكومة العراقية مع إيران تلك الحرب التي طال أمدها وقضى فيها العديد من شباب العراق. وقارن الحال مع سوريا التي يحكمها جناح من حزب البعث أيضاً والتي لم يقحمها النظام هناك بحرب غير معلومة النتائج مع إسرائيل رغم مشروعيتها. فرد عليه مروان معترضاً بحماسة خطيب:

– العراق يدافع عن البوابة الشرقية ضد المخططات

التوسعية الفارسية، بينما الحكومة السورية التي تصبر على عار استيلاء إسرائيل للجولان، تتجرأ في الوقت ذاته على دك مدينة (حماة) بالمدفعية.

فرد عليه (سمير):

- لعلك تظن أن الحكم في العراق، يحجم عن قتل العراقيين؛ لقد أعدم آلاف المعارضين داخل السجون السرية، بتهمة الانتماء لحزب الدعوة، والحزب الشيوعي، وكان يُنزل بهم أشد أنواع التعذيب قبل إعدامهم؛ حتى أن الموت كان ليبدو لهم، أرحم من التعذيب. ثم يدفنوهم في قبور جماعية سرية.

تدخل (علاء) قائلاً:

- كلهم متشابهون، دعونا من السياسة ولننزل إلى صالة الاستقبال لنشرب شيئاً؛ لأني أشعر بجفاف فمي.

بعد أن أمضيا يومين ممتعين عند البحر؛ عادا إلى مدينتهما. وكان (علاء) قد شفي تماماً من الجرح الذي سببته (جاكلين) له؛ بعد أن تعرف في الفندق على فتاة، وقع سريعاً في حبها على عادته.

سارت الحياة على وتيرتها في العام الجديد، وخرجت (جانا) من المستشفى بعد مرور أربعين يوماً من دخولها إليه، ورغبا

بتعويض ما فاتهما من وقت، فأخذا يلتقيان كل يوم تقريباً.
كان قد أنهى مراجعة دروسه عصر ذلك اليوم، عندما زاره أحد الأصدقاء اسمه (جمال) يدرس في مدينة (بلغراد)، ويتردد عليه من حين لآخر.

أعد له شاياً عراقياً بطعم الهيل أخذ يرتشفه على دفعات صغيرة، وبين جرعة وأخرى كان يسأل(سمير)عن أحواله وأحوال بقية الإخوة. فأخبره عن الأزمة التي مر بها(علاء) وكيف تعافى بعد سفرتهما.

- علمت عن سفرتكم تلك، وفي الحقيقة هذا ما دفعني للمجيء من (بلغراد)، فقد جئت للتكلم بصدده.

دهش لسماعه تلك الجملة، ولكنه تركه ليسترسل في الكلام. فقال:

- قبل عدة أيام، استدعاني الأستاذ (أبو سحر)، وقال لي:(أعلم أنك تتردد كثيراً على مدينة بانيالوكا). وسألني إن كنت أعرفكما، أي أنت و(علاء). فقلت له:(نعم، هما صديقاي). فأخذ يسألني عن ميولكما السياسية.

قطع (جمال) حديثه بأخذ رشفة من قدح الشاي، بينما كانت الهواجس تتبئ(سمير) بأن خطباً سيئاً يختبئ خلف تلك

الأسئلة. فسأله:

- ولماذا يسأل (أبو سحر) عنا؟
- في الحقيقة لقد أخبرني وبالحرف الواحد بأن تقريراً قد رُفع إليه يفيد بأنك و(علاء)، تعرضتما بالنقد والذم للقيادة، وأنكما أشدتما بسياسة (حافظ الأسد)، وذلك خلال سفرتكما إلى البحر.

صعق لسماعه هذا الخبر وسرت في جسده رعشة. (من لا يعرف أبأ سحرا هذا؟! فهو مسؤول جهاز المخابرات في السفارة. تلك المخابرات التي تطال يدها أي معارض في أي بلد على الكرة الأرضية ولا تعير أدنى اهتمام للأعراف الدبلوماسية، وقد طرق اسمه أسماعه). استرسل (جمال)؛ عندما لاحظ صمت(سمير):

- لقد بالغت في مدحكما، وقلت له بأنكما من الموالين.

فسأله وهو لا يزال غير مصدق لما يجري:

- وهل تظنه اقتنع بكلامك؟
- لا داعي لأن تقلق، الرجل متفهم ويعي جيداً حقيقة أن ليس كل ما يقال يكون بالضرورة صحيحاً، فقد يكون الأمر ادعاءً كيدياً.

لم يُبدد كلام (جمال) هذا، الروع عن نفسه، لأنه يعي أن الأمر

ليس كيدياً، فهو كلام صدر عنه بالفعل، وإن أحداً السوريين قد وشى بهما فعلاً، لأن(علاء) متهم في التقرير مثله.

- إنه يريد منكما المثول أمامه في السفارة.

عندها فقد (سمير) صوابه وصرخ بوجه (جمال):

- هل أنا مجنون لأذهب لحتفي برجلي؟ ألم تسمع عن ذلك الطالب المعارض الذي اُستدرج إلى داخل السفارة ولم يخرج منها أبداً؟ وقيل إنهم أرسلوه إلى العراق بصندوق البريد الدبلوماسي.
- على أي حال لقد أبلغني أن أخبركما عن رغبته تلك، وأنا شخصياً أرى أن من الحصافة أن تذهبا وتقابلاه وتنفيان ما ذُكر عنكما، فإن لم تفعلا، فلربما صَدَّقَ ما بلغه عنكما في التقرير. أنت لا تعلم كم هو لطيف ومتواضع ذلك الرجل، على الخلاف من (أبو برزان) المسؤول السابق للسفارة الذي ما كان يتوانى عن ترَقين قيد أي طالب لأتفه الأسباب.

ما ذكره (جمال) عن (أبو برزان) كان حقيقة، فقد أفضى سلوكه التعسفي ذاك، إلى ترقين قيود أولئك الطلبة غير المحظوظين، لمجرد أن أحدهم رفع تقريراً ينسب عن آخر كلمة تافهة أو نكتة قيلت بحق النظام. فيجد الطلبة أنفسهم محرومين

من استلام حوالاتهم المالية من أهلهم، ومحرومين من زيارتهم، فضلاً على أن السفارة لن تجدد لهم جوازات سفرهم في حال انتهاء صلاحياتها. والأدهى من ذلك، يصنفون على أنهم معادون للنظام. فلا يجدون أمامهم من يمد لهم يد العون غير أحزاب المعارضة لتجدهم بعد مدة قد تحولوا إلى معارضين حقيقين وبعضهم من رموزها. هذا ما يعلمه عن الرجل ذاك، فهل أدركت الحكومة خطأها واستبدلت الرجل الذي زاد من عدد المعارضين للنظام، بآخر يعمل على احتوائهم؟ أم أن (أبو سحر) هذا يضمر أشياء يجهلها؟ ولكن على أي حال من الأحوال لا ينبغي الوثوق برجال المخابرات الذين لا يفصحون حتى عن أسمائهم الحقيقية بل يعرفون بكُناهم فقط.

- دعني أفكر في الموضوع.

ولكنه في قرارة نفسه كان يعد العدة لأسوء الاحتمالات.

حالما مغادرة (جمال)، قصد منزل(علاء)، فتفاجأ بمعرفته بالتفاصيل، وكأنه شيء عادي لا وزن له. وكان أحد معارفه من المبتعثين لدراسة الدكتوراه في بلغراد على نفقة الدولة، ويدعى (أبو سنان)، قد أطلعه عليها.

فسأله إن كان ينوي مقابلة (أبو سحر) أم لا؟ فأجابه:

- لقد تعهد لي (أبو سنان) بأن لا يصيبني أي مكروه،

والرجل كما تعلم، هو زميل لعمي في المخابرات قبل أن يبتعث لنيل الدكتوراه في العلوم السياسية في بلغراد. وقد أوصاه عمي فيَّ.

بقي مشتت الفكر ومحتاراً؛ فـ(علاء) وجد من يضمن له سلامته، فمن سيكفل سلامته هو؟ ولا سيما أن(علاء) لم يخض في ذلك الحديث المشؤوم، إلا قليـلاً؟ (تباً للقيادة وللحكومة! ما لي وما لها!؟)

-٧-

(عبد)، من غير إضافة أخرى لأسماء الله الحسنى أو لفظ الجلالة؛ هو أصغر أعمام (علاء)، باكورة سني حياته، قضاها في إحدى قرى ناحية (الغراف) التي تتحدر منها أسرة (علاء). كان شخصاً ذكياً ومثابراً، أنهى دراسته الابتدائية والتي لزمه ارتيادها، قطع مسافة عشرة كيلومترات ذهاباً وإياباً سيراً على الأقدام. ثم انتقل بعدها إلى قضاء الشطرة للدراسة في المرحلة الثانوية. وهناك تأثر بالفكر الماركسي الذي كان منتشراً بين أوساط المثقفين والمسحوقين، وأصبح ناشطاً شيوعياً بارزاً. كان والد(علاء) يخشى عليه كثيراً بسبب ميوله السياسية تلك. فاعتقد بأنه إذا ما قام بتزويجه من (هدية)ابنة عمه، فسيرغمه ذلك على ترك العمل بالسياسة، ولكنه لم يتغير، بل وبسبب تأثيره على زوجته انضمت هي الأخرى إلى الحزب، رغم أنها لا تقرأ ولا تكتب.

بعدما أنهى المرحلة الثانوية، أصبح مطارداً من قبل الشرطة بسبب نشاطه السياسي، وكان أخوه الأكبر والد(علاء) قد انتقل من الريف إلى بغداد قبل عدة أشهر، فهرب إلى بيت أخيه في بغداد، مصطحباً معه زوجته.

كان(عبد) في حالة من الفقر الشقي لأنه كان عاطلاً عن جميع الأعمال، إلا العمل الحزبي. وصل هو وزوجته إلى بغداد بهيئة بائسة يرثى لها، فقد كان يرتدي حذاء من البلاستك كان شائعاً بين الطبقة الفقيرة، فُقِدَت مقدمته، بسبب كثرة الاستخدام، فكانت نصف قدمه تدوس الأرض مباشرة. أما قميصه الرث فقد رُقِّع لدرجة أن مساحة الرقع كانت أكبر مما تبقى من أصل القميص. وكان يتمنطق بحبل يشد به سرواله. أما زوجته التي ترك الريف بصمته على وجهها الذي طرزه الوشم على الذقن والحاجبين، فكانت تلف خرقاً حول قدميها بدلاً عن الحذاء.

التحق(عبد) بكلية الإدارة في بغداد، وفي أوقات العطل كان يعمل مع أخيه الأكبر في أعمال البناء ليكسب قوته، ولكنه لم يتخل عن نشاطه في الحزب الشيوعي، لغاية اعتقاله في نهاية عام ١٩٦٧. وكان معه في السجن سياسيون من أحزاب أخرى، وبعثيون وقوميون.

في السجن نسي الفرقاء خلافاتهم السياسية، وجمعهم شعور واحد، ألا وهو اضطهاد النظام وقمعه لهم. فحدث تقارب وألفة بينه وبين بعض البعثيين الذين لم يمض عليهم طويل من الوقت حتى تسلموا سدة الحكم.

ولكي يسيطر البعثيون على المفاصل الحساسة في الدولة؛ أخذوا يزجون أقرباءهم ومعارفهم، لسد النقص الناتج من حقيقة أن عدد الانقلابيين كان قليلاً. وهنا تذكروا زميلهم في الزنزانة.

عندما قدمت سيارة الجيب الحكومية إلى منزل(عبد)، تصور أنهم أتوا لاعتقاله، إلا أنه عاد إلى منزله بعد عدة ساعات يقود بنفسه سيارة جيب حكومية مرتدياً بزة عسكرية من دون رتبة، كان ثمنها هو تخليه عن أفكاره الماركسية والانضمام إلى البعثيين، الذين لم يجد ضيراً في الانتماء إليهم فهم رغم كل شيء اشتراكيون.

عمل(عبد) في جهاز المخابرات وغير اسمه إلى (عبد الله) على الرغم من أن معارفه القدماء بقوا يدعونه باسمه القديم (عبد)، أما معارفه الجدد فلا يعرفون عنه سوى أنه (أبو فرات)، وتفتحت أمامه آفاق الحياة، فسكن في بيت أشبه بالقصر وجُلِب له الأثاث من الخارج. وأرسل زوجته إلى باريس لكي تُجرى لها هناك عملية إزالة الوشم ولتتعلم (الإتكيت) في معاهد خاصة، لتصبح (الست هدى).

ذهب (علاء) إلى السفارة مع (أبو سنان)، ومَثُلَ أمام (أبو سحر) الذي كان ودوداً جداً معه. طارح عليه سيلاً من الأسئلة التي تركز معظمها حول(سمير)، فيما إن كان يصلي، أو يصوم، أو إن كان من أصول إيرانية، أو أن أحداً من أقربائه أعدم بسبب انتمائه لحزب الدعوة.

كان تصنيف النظام لدرجات القرابة غاية في الغرابة، والأجدر تسميته بالـ (لا قرابة)، فهو قد يربط الإنسان بشخص لربما لم يلتق به في حياته ولو لمرة واحدة.

دفع(علاء) من جهته، كل تلك الأشياء عن صديقه مؤكداً له، بأنه شاب مفعم بالحياة ومنفتح. وبعد أن أنهى كلامه قال (أبو سحر):

- على أي حال أريد مقابلته، ولا مناص من ذلك لأنهي الموضوع.

عندما علم (سمير) بتفاصيل المقابلة، ازداد قلقه أكثر من ذي قبل لأن الرجل ذهب بعيداً في شكوكه، ألا وهو شبهة انتمائه لحزب الدعوة الذي لم يتوان النظام عن التنكيل بمؤيديه وبعائلاتهم أيضاً. وهو وإن كان يفصل بينه وبين العراق ستة آلاف كيلومتر إلا أنه يعلم أن يد النظام تستطيع أن تنزل العقاب به.

بعد قرابة الشهر زاره (جمال) ثانية، وأخبره بأن (أبو سحر) يلح في موضوع المقابلة. فرد عليه:

- تذرع لي بأي شيء، قل له أنني مشغول بالدراسة والامتحانات.

ولكن(جمال) اتصل به لاحقاً وأخبره بأن (أبو سحر) بلَّغه بأن يتصل به ويكلمه شخصياً. وهذه المرة أُسقط في يده، وأدرك بأن الرجل لن يتركه وشأنه، أو أن يدع الموضوع معلقاً هكذا. وبعد تفكير ملي توصل إلى قناعة أن الأفضل له، مواجهته بدلاً من التهرب منه؛ لغلق الموضوع نهائياً مهما كانت النتيجة. وكان لابد من استباق الحدث والتأهب لأسوأ الاحتمالات؛ فكتب رسالة إلى أهله يستعجلهم فيها بتحويل النقود له.

في اليوم التالي، اتصل بـ (أبو سحر). كان قلبه يرتجف بشدة مع كل رنة على الطرف الأخر من الهاتف؛ بعدها رُفعت السماعة ليسمع صوت رجل يرد:

- نعم، تفضل.
- الأستاذ (أبو سحر) لطفاً؟
- تفضل، إنه معك، من المتصل؟
- أنا الطالب (سمير راشد). هل عرفتني؟

أطلق ضحكة صغيرة، ثم قال:

- أووه. وكيف لا أعرفك. أنت أشهر من نار على علم.

شعر باضطراب شديد لهذا الكلام الذي لا يمكن على الإطلاق تفسيره على أنه إطراء.

- لقد أعطاني(جمال) رقم هاتفك.
- نعم، آثرت التحدث إليك دونما وساطة بيننا ما دمت تتجنب مقابلتي.
- كلا! ليس الأمر هكذا! الدراسة هي التي منعتني، إنها فترة امتحانات كما تعلم.

لا أعتقد أن يوماً واحداً سيؤثر عليك إلى هذا الحد.

- امهلني فقط إلى الأسبوع القادم، الخميس القادم سأكون عندك حتماً.
- لا بأس سأكون بانتظارك.

مرت الأيام مسرعة، وجاء الخميس ومعه ذلك الواجب المرعب الذي لا يمكن تفاديه. وكانت(جانا) تلاحظ أن شيئاً ما يقلقه، أخذت تحاصره بأسئلتها، فكاشفها بالذي يجري، فأبت إلا أن ترافقه. ومن ناحيته كان يشعر بحاجة لمؤازرة أحد ما له، فوافق.

خطر في باله أن يتعمد إبعاد أي مظهر له يوحي بأن له

علاقة بالدين، فطوق رقبته بقلادة من ذهب كانت قد أهدتها له (جانا)، وسلسلة فضية حول معصمه الأيمن، وفي الجانب الأيمن عند الحزام وضع حقيبة جلدية بداخلها نقوده وجواز سفره كما يفعل السائحون.

انطلق بهم الباص في ساعة مبكرة، ومع تقدم الوقت ويتكشف النهار، يصبح المشهد جميلاً على امتداد الطريق الذي يربو على ثلاثمائة كيلومتر. المزارع والحقول تعانق أسفلت الطريق ولا يفرق بينهما سوى بعض البلدات الصغيرة بأبنيتها ذات السقوف المكسوة بالقرميد الأحمر الجميل. وعلى رأس أبراج الكهرباء عششت طيور اللقلق. كانت (جانا) غافية معظم الوقت مسندة رأسها إلى كتفه الأيسر، وكان التحام جسديهما ذلك، يدخل على قلبه الشعور بالراحة والسكينة.

ولكن من حين لآخر يقفز إلى ذهنه التفكير بالمقابلة تلك، وقصة صندوق البريد الدبلوماسي، وتحجب عنه تلك المناظر الجميلة، كما تحجب الغمامة الشمس.

وصلا (بلغراد) واستقلا (الترامواي) من أمام محطة القطارات القديمة، وفي المحطة الثالثة، عند الشارع الذي يؤدي إلى السفارة ترجلا، وجلسا في مقهى يقع عند ناصية الشارع، لأن الوقت ما يزال مبكراً.

بعد ساعة تقريباً نهض قاصداً السفارة فانتصبت هي الأخرى وكان القلق ظاهراً على وجهها، فضمته إلى صدرها وقبلته وأوصته أن يحترس بشكل جيد أثناء حديثه.

كانت قدماه قد ساقته من قبل في هذا الشارع المؤدي إلى السفارة التي تشغل منزلاً كبيراً من طابقين صمم على الطراز (الفكتوري)، مع بناء ملحقٍ منفصلٍ عن السفارة، خصص للملحقية الثقافية التي كان يتردد عليها لأمور تتعلق بملفه الدراسي، حاله حال بقية الطلبة الذين يتوزعون على جامعات هذا البلد، أما السفارة ذاتها فلم تطأها قدماه من قبل. تذكر المرة الأولى التي راجع فيها الملحقية الثقافية وعندما قرأ الملحق الثقافي اسمه وأنه من مدينة العمارة، سأله:

- هل والدك هو ذلك المعلم الطويل الأبيض البشرة وعلى خده الأيسر يوجد أثر لحبة بغداد*؟

فدهش لوصفه لوالده ولاسيما أن الرجل كان من مدينة (حديثة) غرب العراق:

- نعم أستاذ، ولكن من أين تعرفه؟

اكتست وجه الملحق ابتسامة عريضة وقال:

- لقد كنت معلماً في الستينيات ونفيت إلى مدينة (العمارة) بسبب انتمائي لحزب البعث، وبقيت منفياً

هناك ثلاث سنوات وكنت ووالدك نُدَرّس في نفس المدرسة.

كانت الحكومة تنقل الموظفين ذوي الميول والأنشطة الحزبية المناوئة لها، إلى مدنٍ بعيدةٍ عن محل سكناهم، كإجراء عقابي لهم، ومن المؤكد أن النظام الحالي أدرك أن ذلك ليس إجراءً ناجعاً بدليل أنهم استطاعوا تسلم الحكم رغم تلك الإجراءات، فعمد إلى أسلوب البطش والتنكيل.

كانت بناية السفارة محاطة بسور نصفه الأسفل حجري، أما النصف العلوي فكان من قضبان الحديد. وثمة مقصورة حرس توجد عند بابها الخارجي، يشغلها رجل أمن من البلد المضيِّف، أما عند الباب الداخلي للسفارة، فكان هنالك رجل أمن عراقي يتولى إدخال المراجعين.

وخلافاً لجميع سفارات العالم التي راجعها، والتي تضع في استعلاماتها أناساً يتحلون بمظهر متأنق وكياسة كبيرين، كان يستقبل المراجعين في السفارة العراقية، شخص أطلق عليه الطلاب العراقيون اسم (أبو عيـون جريئة) بالجيم المعجمـة،

---

*اللشمانيا أو البثرة الشرقية

لأنه كان أحولَ، دميماً أكل الجدري وجهه. وكان يغلف أسنانه

بالذهب.

كان أبو عيون جريئة يستقبل المراجعين بفظاظة واضحة ويستثار غضبه عندما يوجه كلامه لشخص ما فيرد عليه آخر يظن أن الكلام موجه له.

أخبره بأنه يريد مقابلة الأستاذ (أبو سحر). فقال له وهو يشير بيده إليه ليغادر المكان:

- لديه ضيوف.

فعاد إلى المقهى الذي جلست عنده (جانا)، التي استهلت الفرحة وجهها عندما رأته ظناً منها بأن الموضوع قد حسم سريعاً، قبل أن يخبرها عن سبب رجوعه. انتظر هناك قرابة الساعة، قبل أن يعيد الكرة ليجد الجواب ذاته. ولأنه كان يتوجب عليه العودة في نفس اليوم إلى مدينته، فقد فكر أن من الأفضل له الإبلاغ عن وصوله عن طريق الهاتف، بدلاً من هدر الوقت بانتظار أن يسمح له (أبو عيون جريئة) بالدخول. وقد نجح الأمر إذ أدخله الحارس في الحال وأشار بيده إلى رواق توجب عليه أن يسلكه، يفضي إلى صالة جلس فيها حارس أمني متجهم الوجه، سأله بدوره عن وجهته فقال له بأنه يقصد. فأشار له بصعود السلم الموجود على يمين الصالة إلى الطابق العلوي.

صعد السلم، وتسارعت دقات قلبه بسبب الإجهاد والخوف. فأخذ يبطئ في خطواته ليسترد أنفاسه.

أشار حارس الطابق العلوي إلى غرفة واسعة بعض الشيء، بابها مفتوح. وخلف مكتب فاره في قبالة الباب، جلس رجل حسن المنظر، لربما في الأربعين من عمره أو أقل من ذلك، ببشرة بيضاء وشاربين. كان مشغولاً بالبحث عن تردد في راديو ضخم لم يرَ مثله من قبل، وضِعَ على طاولة إلى الجهة اليمنى من مكتبه.

بقي سمير(واقفاً) عند الباب لحين عثور (أبو سحر) على إذاعة الجمهورية العراقية التي كان الصوت ينساب منها واضحاً ومسموعاً لدرجة يخيل للسامع أنه في العراق.

أدار كرسيه الدوار وأصبح وجهاً لوجه مع(سمير)الذي ألقى التحية. فردها عليه وأشار إليه ليدخل ويجلس على الأريكة التي إلى اليسار منه.

أخذ يتفحصه بنظراته للحظات تخللها صمت مرعب. ليفاجئه بسؤاله:

- هل أنت فنان؟

سُرَّ كثيراً لسؤاله لأن خطته في شد انتباه الرجل قد نجحت. وأبدى جهله:

- كلا! لماذا؟
- يبدو مظهرك كالفنانين، هل تشرب الشاي أم القهوة؟
- شكراً أستاذ. لا داعي للتكلفة. لقد احتسيت الكثير منها أثناء انتظاري خارجاً.
- إذن سأطلب من موظفة الضيافة أن تجلب لك فطوراً.
- شكرا لك أستاذ، في الحقيقة لقد تناولت فطوري قبل مجيئي إلى هنا.
- مع ذلك ستجلب لك الموظفة، قشطة عراقية وصلتني هذا الصباح على متن طائرة الخطوط الجوية العراقية، مع عسل جبلي من شمال العراق.

لم يستطع مقاومة إلحاحه المريب ذلك، وراوده شك في بادئ الأمر، بأنهم لربما سيدسون له سماً، أو مادة مخدرة في الطعام؛ ولكن تلك المخاوف تبددت عندما سمع من الإذاعة، برنامجاً يتناول إرشادات طبية للصائمين، فتذكر بأنهم في شهر رمضان، ولربما شك الرجل بأنه صائم ويريد التحقق من ذلك.

بدا الرجل ودوداً ويتصرف من غير تكلّف؛ طرح عليه أسئلة عن وضعه الدراسي، فرد عليه بأن وضعه الدراسي جيد هذا العام.

ثم سأله عن سبب انقطاعه عن حضور الاجتماعات الحزبية؟

فأخبره بأن مسؤولهم الحزبي تخرج قبل عام، ولم يحل أحد مكانه؛ لأن عدد الطلبة قليل.

فسأله (أبو سحر) معاتباً:

- ولماذا لم تتصلوا بأقرب مدينة؛ ليخصصوا لكم مسؤولاً آخر؟
- ولكن أقرب مدينة إلينا، هي مدينة (زغرب)التي تبعد عنا مائة وثمانين كيلومتراً!
- وإن يكن، سأبلغهم ليتصلوا بكم، العراقي الأصيل لا تعني له المسافات شيئاً، ويبقى على وفائه لقائده ووطنه.

لم يخفَ عليه، الغمز الذي تقصده تلك الموعظة؛ ولكن (أبو سحر) لم يكتفِ بالتلميح وفاجأه بسؤال غير متوقع:

- كيف حال عمك؟

كان سؤالاً غريباً، ولكن تبادر إلى ذهنه بأن الرجل لربما يعرف عمه (ماجد).

- أو تعرف عمي عقيد (ماجد)؟
- كلا، بل عمك الآخر.
- ليس عندي عم آخر.
- و(الخميني)!

شعر أن السماء قد انطبقت عليه، وأنه هالك لا محالة؛ فهذا اتهام صريح له بميوله لحزب الدعوة. أخذ يتفصد عرقاً وتسارعت دقات قلبه وهو يدفع الاتهام عن نفسه:

- كيف يكون عمي؛ وأنا عربي وهو فارسي، مجوسي؟
- وماذا عن (حافظ الأسد)! ألم تقل بأنه أفضل من السيد الرئيس؟
- أنا قلت ذلك!؟ أنا مستعد لمواجهة ذلك الكذاب الذي نقل لك هذا الافتراء عني ليوقع بي.

لاحظ الرجل مدى توتره ويبدو أنه كانت لديه تعليمات بغلق مثل هذه الملفات فقال مهدئاً:

- اجلس. اجلس. على أي حال نريد قلب تلك الصفحة وأن نبدأ بأخرى بيضاء.

كان غير مصدق لما قاله (أبو سحر)، فرد عليه وهو ما يزال يرتجف:

- والله إن صفحتي بيضاء، ولا حاجة لي بأخرى.

فحاول (أبو سحر) تغيير الموضوع:

- قل لي يا(سمير)، بماذا تتصف المدينة التي تدرس فيها؟
- إنها مدينة جميلة وهادئة، فيها قلعة أثرية عثمانية،

وسكانها خليط من المسلمين والصرب والكروات. ويقال إن نسبة الإناث فيها إلى الذكور، كنسبة ثلاثة إلى واحد.

فجأة تهلل وجه (أبو سحر)، وانفرج ثغره عن ابتسامة عريضة، وأخذ يحرك كرسيه على الجانبين، وقال:

- سآتي لزيارتك في أقرب فرصة تسنح لي!

بدا واضحاً أن وصفه الذي ذكره عن المدينة بعفوية وبراءة، أثار شبق الرجل الذي لا يتمكن من إقامة علاقة مع النساء هنا، بحكم وظيفته التي تجرم ذلك، ولكن في مكان قصي وبعيد عن أعين الرقباء يمكنه فعل ذلك.

كان متيقناً بأنه يريده أن يصبح قواداً له، وكأنه يتوجب عليه الرد على جميل أسداه له، وهو غلق موضوع الوشاية الخطير.

مضي شهر على تلك المقابلة، وسمع بأنه نُقِلَ إلى سفارة العراق في استراليا، فتنفس الصعداء.

-٨-

احتفل(سمير) بعيد ميلاده الرابع والعشرين. ولم يكن ليكترث لذلك الحدث أو يفكر بإقامة الحفلة التي دُعيَ إليها أصدقاؤه المقربون، لولا إصرار (جانا) على ذلك، ولم يكن بوسعه معارضة رغبتها. هو ذاته لا يعرف كيف يتسنى لفتاته الشقراء، ذات العينين الزرقاوين كلون البحر، والقوام المنتصب كرمح والتي يرتبط بها منذ عامين، أن تأسره بجمالها، وتسلب منه جميع حواسه وتجعله يتخلى كلياً عن جموحه ونزواته السابقة وفكرة الانتقام من بنات حواء التي خلفها جرح (هيام) له.

ذات مرة قال له (فادي):(أظنك تروم دخول موسوعة (جينيس) للأرقام القياسية بعدد العلاقات التي تقيمها مع الفتيات). دفع ثمن تصرفه السابق باهضاً عندما تعثرت دراسته، ولكن تغير كل شيء؛ بعد أن دخلت (جانا) إلى حياته.

عامان مرا. وقت ليس بالقصير حتى بالنسبة لعادات القوم. حيث أصبح منظرهما مألوفاً في الأماكن التي كانا يرتادادها.

كان جالسا في شقته حينما رن جرس الباب. وعندما فتحه تفاجأ بـ(جانا) تقف منتصبة أمامه، فلم يكن من عادتها أن

تزوره دون موعد مسبق. وكعادتهما عند اللقاء، عانقها وقبلها. لكنه شعر بفتور واضح لأحاسيسها نحوه هذه المرة.

دعاها للدخول وفي رأسه دارت ألف علامة استفهام تبحث عن أجوبة. فدخلت وجلست أمامه دون أن تتبس ببنت شفة.

الصمت كان سيد الموقف، وحدسه ينبئه بأن خطباً ما قد حصل، ولكن صمتها أثار حفيظته، فوجه إليها سؤالاً مباشراً:

- مالك تبدين واجمة؟

صوبت إليه نظرة جوفاء ومرت عدة ثوان قبل أن تجيب:

- أنا حامل.

ارتج قلبه لذلك الخبر، وشعر بضيق شديد يطبق عليه، فقد كان شديد الحرص على تجنب حصول ذلك الشيء.

وهذه المرة صمته هو الذي أثار حفيظتها، فقالت:

- عليك تدبر الأمر.

تدبر الأمر جملة لا تقال جزافاً ويعي دلالتها جيداً وهي غير قابلة للتأويل. جملة أطاحت بالكثير من أصدقائه. التسلسل المنطقي هكذا. علاقة جادة مشفوعة بحمل عرضي؛ والنتيجة هي حكم بالزواج مع النفاذ. لا تسير الأمور إلا على هذا النحو؛ إنه اختبار باهظ الثمن، لمدى رغبة المرء للاستمرار بالعلاقة. بالطبع بوسعه التصرف كنذل ويتنصل من

المسؤولية، حينها ستنهار العلاقة، وهذا ما لم يكن يرغب فيه.

ولكن ومن جانب آخر، فإن نشأته الشرقية التي ارتوت من ماء دجلة، تمنعه من الزواج من فتاة غربية لا تجد حرجاً من أن تحتفظ بصورها مع أشخاص ارتبطت بهم قبله.

ها هو يجد نفسه في حالة لا يحسد عليها. أمامه تجلس (جانا) وعيناها تراقبان تعابير وجهه وتترقب ردة فعله، منتظرة الإجابة منه. وأمامه أيضاً خياران أحدهما أصعب من الآخر.

قرأ لعلي الوردي ذات مرة (إن الإنسان يسعى لإشباع غرائزه، وأن دور العقل هو لتبرير تلك الغرائز).

أخذ يقلب أفكاره بسرعة للعثور على مخرج من مأزقه هذا، فوجد أن خياري الفوز والخسارة ليسا الوحيدين، فالتعادل متاح أيضاً. فقال لها مرققاً صوته:

- (جانا)، عزيزتي، اسمعيني جيداً، ألم أكن صريحاً معك منذ البداية إذ قلت لك بأنني أنوي العودة إلى وطني بعد أن أكمل دراستي؟ أليس هذا ما أعلنته لك؟

لاحظ علامات التوجس بادية عليها، حينما أجابته:

- نعم لقد أخبرتني بذلك!

كان واثقاً من أن زمام المبادرة بيده، وأنه هو من يديره، فقرر أن يرخيه قليلاً:

- وأنت تعلمين أن علاقتي بك، علاقة جادة، ومصيرها هو الزواج قطعاً.

لاحظ أن أساريرها تفتحت بعد جملته تلك، وكأنها قطفت ثمار ما كانت تصبو إليه، فقالت بعطف وحنو شديدين:

- نعم هو كذلك.
- وهذا يعني أنك ستنتقلين للعيش معي في بلدي. ولكن ألم يخطر ببالك ولو لمرة واحدة بأنك لربما لا تستطيعين العيش في بلد يختلف كلياً في نمط العيش عن الذي عهدتيه في بلدك من حيث العادات والتقاليد واللغة؟ فحتى الطقس يختلف، الحرارة هناك لا يطيقها أهل البلد أنفسهم، وفوق كل ذلك، تلك الحرب مع إيران التي لا يبدو أن لها نهاية تلوح في الأفق.

شعرت بالقلق لكلامه هذا، فهو يرسل إليها إشارات متضاربة وأرادت أن تعرف إلى أين سيوصلها حديثه هذا. فأجابت، وفي صوتها حشرجة قائلة:

- نعم، من الممكن حدوث ذلك الأمر.
- إذن تصوري الأمر على هذا النحو، تزوجنا وذهبنا للعيش في بلدي بعد إكمال دراستي، وكان لدينا ذلك الطفل، وصادف أنك لم تتأقلمي على العيش هناك

وشدك الحنين للعودة إلى وطنك، فما مصير ذلك الطفل؟ أليس من الإجحاف بحق كل واحد منا الاستئثار به لنفسه؟ ناهيك عن كونه إجحاف بحق الطفل نفسه عندما يحرم من أحد والديه.

لم تتمكن هذه المرة من إجابته، فقد تكفلت الدموع التي انهمرت من عينيها بذلك، فجلس الى جنبها وضمها إلى صدره ليخفف عنها:

- لا عليك فما زلنا في مقتبل شبابنا والعمر كله أمامنا، هل نسيت إنني ما زلت طالباً ويتوجب على إكمال دراستي أولاً، وأنك عاطلة عن العمل؟ ثم إنه لا يوجد أكثر منا نحن الشرقيين محبة لإنجاب الأطفال، ولكن كل شيء في أوانه.

استطاع بكلامه هذا أن يهدئ من روعها بعض الشيء. وبعد لحظات من الصمت قالت وهي تكفكف دموعها:

- إذن يتوجب عليَّ إسقاط الجنين قبل فوات الأوان. سأذهب غداً إلى المستشفى.
- سأقلك بسيارتي إلى المستشفى؟
- لا داعي لذلك فالمستشفى قريبة من منزلي.

ثم ودعته وانصرفت.

بعد أن غادرت بقي متسمراً على الأريكة يكدر تفكيره هذا الشيء الذي لم يضعه بالحسبان، كان يعلم بأن الأمر لن يكون سهلاً تقبله بسهولة، وأنه سيخلف جرحاً مؤلماً ليس من السهل رتقه. (هل وقع في حبها؟) في الحقيقة إن الألفة الطويلة تجبر المرء في النهاية على أن يقع في الحب. لكنه لم يكن مستعداً بعد للارتباط الحقيقي، ولم يتشكل في فكره تصور واضح فيما يتعلق بأية نهاية محتملة، لذا لا يتوافر في الوقت الراهن حل آخر سوى الإجهاض.

قطع رنين جرس الباب عليه سلسلة أفكاره الهائمة. كان صديقه الفلسطيني (فادي) يقف عند الباب، فأدخله إلى الصالة وراح يعد له فنجان قهوة بنكهة الهيل.

لاحظ فادي الوجوم والكدر على وجهه، فسأله عما يشغله فأخبره بالموضوع، فقال له مطمئناً:

- لا عليك، ستجري عملية الإجهاض وينتهي كل شيء.

ارتشف قهوته ثم أردف قائلاً:

- ما رأيك لو نسافر إلى مدينة(سبلت) لقضاء عطلة نهاية الأسبوع بسيارتك؟ سأتدبر أنا أمر السكن عند قريبي الذي يدرس هناك.

بدا الأمر مناسباً له لتغيير الجو، كما أن السفرة لن تكون

مكلفة. وفي غضون ساعة واحدة كان يقود سيارته ميمماً مدينة (سبلت) التي تقع إلى الغرب على البحر الأدرياتيكي، قاطعاً المرتفعات البوسنية الخضراء التي تنتشر على منحدراتها، القرى والقصبات الجميلة. وإلى جانبه جلس (فادي) الذي حاول تجاذب أطراف الحديث معه؛ ليخرجه من متاهة التفكير، ولكن رأسه، كان منشغلاً بسؤال يقفز من حين لآخر، ويكدره: **(ماذا لو أنها خافت من موضوع الإجهاض وتراجعت عنه؟ سيقودنا هذا إلى المربع الأول)** سؤال لم يُفضِ إلى إجابة مطمئنة.

كان قرص الشمس يلامس خط الأفق، كبيراً بلون قرمزي جميل عندما لاحت لهما مدينة (سبلت)، وتنشقا عميقاً نسيم البحر الأدرياتيكي الدافئ. ومع حلول الظلام كانا قد بلغا وجهتهما، وبدأت أفكاره المقلقة تتلاشى شيئاً فشيئاً.

كان مضيفهما الفلسطيني يدعى(عمر)، وهو شاب وسيم يدرس في المرحلة الرابعة من الطب البشري، ينتظرهما في شقته، ولم يتطلب منه وقت طويل ليتعارفا، فهكذا هم الشباب.

لبثوا في الشقة بعض الوقت، ثم خرجوا قاصدين قلب المدينة القديمة المرصوف بالحجارة والنابض بالحركة، ثم قرروا دخول ملهى ليليٍّ.

داخل الملهى بدت الكتل البشرية المتراصة تتلوى راقصة بتناغم

مع صوت الموسيقى الصادح، وانعكاس الأضواء الملونة الخافتة، وكأنها دوامة يحدثها تساقط مياه شلال مرتفع.

هناك انضمت إليهم صديقة(عمر) ورفيقتها التي بدت منجذبة نحو(سمير) وحاولت التقرب منه، بيد أنه لم يكن في مزاج رائق لإقامة علاقة، فرمقته بنظرة ازدراء، ومالت نحو (فادي).

عادوا تلك الليلة إلى الشقة في ساعة متأخرة، لكنهم لم يشعروا برغبة في النوم، فأخذوا يتسلون بلعب الورق الذي كان (سمير) بارعاً فيه ويكسب معظم الأدوار. ورغم أن اللعب كان للتسلية فقط، غير أن مضيفهم (عمر)، كان ينفعل بشدة عندما يخسر ويقوم بشتم نفسه، مردداً (يلعن أبوي) الأمر الذي أثار دهشة(سمير)، فقد كان حرياً به استخدام أي كلمة أخرى من قاموس السباب والشتائم وألا يذكر والده بسوء. بيد أنه ومن باب اللياقة لم يسأله عن السبب وآثر تعمد الخسارة من حين لآخر فاسحاً المجال لمضيفهما بالفوز لتهدأ ثائرته.

لعبوا حتى بزغ عليهم فجر يوم جديد، عندها غلبهم النعاس واستسلموا للنوم.

في ساعة متأخرة من عصر ذلك اليوم، استيقظ (سمير) على إثر كابوس مزعج. إذ حلم أن شخصاً ما كان بحالة هياج، يحاول أن يطبق بيديه على رقبته ويخنقه.

كان رفيقاه قد سبقاه في النهوض. فتهيؤا للخروج، وجلسوا عند مقهى يطل مباشرة على ساحل البحر. كان الجو جميلاً وقرص الشمس يغطس شيئاً فشيئاً في لجة البحر، ومن فينة لأخرى كان يهب عليهم نسيم خريفي منعش، يشعرهم بالرغبة في أخذ إغفاءة. ولكن صورة (جانا) ووضعها لم يبارحا مخيلته. فكر بأن يهاتفها ليعرف منها إن كانت قد أسقطت الجنين أم لا؟ ويتخلص من دوامة التفكير هذه. سأل النادلة عن أقرب هاتف عمومي. فدلته على واحد على مقربة منهم. أخرج قطعا نقدية من جيبه وتوجه صوبه وطلبها، لكنها لم ترد عليه. فعاد إلى مكانه، وعاد القلق متسللاً إلى قلبه.

في تلك الأثناء طلب(عمر) من النادلة كوباً آخر من القهوة، لأنه ما زال يشعر بالصداع الذي خلفته الليلة الفائتة، وعندما هم بارتشافه دلق قليلاً من القهوة على قميصه، فعاود شتم أبيه، فلم يتمالك حفيظة نفسه هذه المرة، وسأله:

- لاحظت ترديدك شتم والدك، أليس هذا إجحاف بحقه؟

فرد عليه بكلام لا يخلو من حنق شديد:

- (يازلمه)، كان والدي في السبعين من عمره ولديه أولاد وأحفاد، عندما تزوج من والدتي التي تصغره بنصف قرن تقريباً، بعد وفاة زوجته الأولى. ولم أبلغ عامي

الأول حين توفي، لأصبح يتيماً. والأدهى من ذلك أن أخوتي سلبوني حقي في الميراث، فشقيت أنا ووالدتي كثيراً لتأمين عيشنا، وكل ذلك بسبب نزوة خرف في السبعين من عمره.

قصته الحزينة أثارت شجونه، ولكن رغم ذلك لم ير ما يبرر شتمه لأبيه، لربما كان أخوته الذين سلبوه الحق في ميراثه، ولم يرعوه صغيراً، أولى بالشتم.

فقال له:

- يا صديقي، الموت مفرق الأحبة، لا يميز بين كبير أو صغير، إنك تلقي باللائمة على والدك وتحمله سبب يُتمك، لأنه كان طاعناً في السن وتوفي، ولكن افترض أن أباك كان شاباً، وتوفي وهو في ريعان شبابه! يمكنك إلقاء اللائمة على إخوتك، ولكن أباك لا ذنب له، فهو لم يتخل عنك بمحض إرادته، فلا تتخل عنه بإرادتك، وهو بالتالي سبب وجودك الآن، شاب وسيم وقوي سيغدو طبيباً بعد عدة سنوات، وستتزوج وترزق بالأولاد وستعرف معنى أن تكون أباً حينها.

تغير تعبير وجه (عمر)عندما سمع كلامه، وكأنه وجد للأمر وجهاً آخر لم يره من قبل.

مرت لحظة صمت، لا يعلم كيف شعر خلالها، بأنه أولى بالنصح من (عمر)، وأن ثمة رابطاً بين علاقة (عمر) بأبيه، وعلاقته بالجنين الذي ينمو في أحشاء (جانا) وفكر: **(عمر يلعن أباه الذي تركه رغم أنفه، أما أنا فقد قررت التخلي عن الجنين بملء إرادتي. ترى ماذا لو قدر لهذا الجنين وتكلم، وقد علم بحكمي عليه بالموت؟ أي نوع من الشتائم سيكيلها لي؟ والحق بالتأكيد سيكون معه، فأي نوع من الآباء أنا؟)**.

فجأة انتابه شعور بالذنب، وآخر بالأبوة تجاه الجنين.

(وماذا عن طبعي الشرقي؟ هل يتوجب عليَّ أن أكون متميزاً عن الكثير ممن خاضوا التجربة عينها. شباب ارتووا من ماء دجلة والفرات، وأنهار أخرى في بلدان شتى. لم يجدوا حرجاً من الارتباط بغربية، ولم يكونوا أول المستكشفين لأجسادهن، وهو شيء غير مُسْتَنْكَر هنا، فلِمَ أكون أنا استثناء؟).

قادته الأفكار بعيدا للتساؤل:(هل سيكون ولداً؟ وهل سيورث عني لون بشرتي، أم سيكون أشقر كأمه؟). تساؤلات عديدة اقتحمت مخيلته ولن يجد أجوبة لها إلا بعد عودته.

ضحى اليوم التالي، ودعا مضيفهما، وأقفلا عائدين.

تجاذب(فادي) معه أطراف الحديث، لكنه كان أسير فكرة واحدة، وهي الوصول قبل فوات الأوان. كم تمنى لو أن(جانا)،

ردت على مكالماته، أو أن تكون تخاذلت وعدلت عن قرارها بإسقاط ذلك الجزء منه، المغروس داخل أحشائها؛ أمنية يقترب من معرفة صدق تحققها، مع كل كيلومتر يقطعه من طريق العودة.

-٩-

الحياة لا تظلل الناس دائما بعطفها، ويد القدر لم تكن سخية مع (سمير)، فلم تمنحه بضع ساعات لكي يبلغ نقطة اللاعودة في علاقته مع (جانا) قبل فوات الأوان. كانت (جانا) تأمل منه الكثير ولم تتوقع أن يقف بوجه ما منحته إياه الحياة. هذا الشيء ما كان ينبغي له أن يساوم عليه ولا أن يصدر قراره الذي كان بلا أدنى شفقة أو رحمة، بإجهاض الجنين.

كانت محبطة ومجروحة المشاعر، ولم تغفر له، رغم أنه أقسم لها أنه اتصل بها ليثنيها عن عملية الاجهاض فقررت الانفصال عنه، أما هو فقد شعر بالمرارة والألم لعدم غفرانها له وكذلك لأنها لم تدرك مقدار التضحية التي كان مستعداً لتقديمها عندما قرر الارتباط بها، ولكنه لم يلقِ اللوم عليها فقط، بل كان يحمّل نفسه قسطاً منه. انتهت علاقته ببعضهما ولكن من دون ضغائن واستمرت علاقتهما كصديقين. في بادئ الأمر تصور أن مشاعرها المستفزة ستهدأ بعد حين من الوقت، ولكن ذلك تبدد عندما ارتبطت بشخص آخر.

بعد سبعة أشهر تخرج من كلية الهندسة، ومن أجل الاحتفال بتلك المناسبة، دعا جميع أصدقائه لحضور الحفلة الفاخرة التي

أقامها في مطعم (كوزارا). (فادي) و(علاء) و(جمال) وصديقاتهم كانوا ملازمين له طيلة الفترة الماضية لمساعدته في تهيئة المتطلبات اللازمة للحفلة.

كانت (جانا) مدعوة هي الأخرى. بدت أكثر جمالاً من ذي قبل بفستانها الزهري الأنيق الذي أظهر مفاتنها خاطفة الأضواء من حولها. كان يرمق مفاتنها فاستعرت نيران رغبته فيها وأصبحت مستنفرة وبالكاد يستطيع لجمها بدافع من كبريائه التي ترغمه على تقمص دور الصديق.

أخذ يتساءل (**ماذا لو أمهلهما القدر قليلا من الوقت؟ لكان يحتفل اليوم، فضلاً عن نيله الشهادة، بقدوم أول مولود له**).

اتخذت (جانا) مقعدها على الكرسي الذي إلى يساره، أما من ناحية اليمين، فقد جلست(سعادا) زميلته في الجامعة التي تغير حالها بعد أن تركت الدراسة عاماً كاملاً، والتحقت للعيش مع والدها يعمل في ألمانيا. وبعد عودتها بدت بمظهر مختلف عن تلك التي عرفها من قبل، فقد كانت أنيقة وجذابة بشكل لافت للنظر.

وبسبب الفراغ الذي خلفه رحيل(جانا)من حياته، فقد وجد في(سعادا)الفرصة المناسبة ليملأ ذلك الفراغ ولاسيما مع عدم توافر الوقت لديه، بسبب انهماكه الجدي بدراسته في الكلية.

لكن ذلك لم يكن بتلك السهولة التي توقعها، فقد تمنعت (سعادا) في البداية متذرعة بكونها مرتبطة بعلاقة جادة، مع شاب آخر في مدينتها التي تبعد تسعين كيلومتراً عن (بانيالوكا)؛ لكنه كان مثابراً واختلق أعذاراً مختلفة، للالتصاق بها، ومن ثم التودد إليها، وفي الآخر مغازلتها. بدا له الأمر كما لو أنهما قد تبادلا الأدوار، كانت هي من يسعى وراءه في السابق وها هو ذا اليوم يسعى خلفها ولكن الفارق هو أنه لا يتقبل الهزيمة بسهولة.

الجغرافيا، في نهاية المطاف كانت في صالحه، لأنها لم تكن تذهب إلى مدينتها إلا في عطل نهايات الأسبوع، أما عندما تبدأ فترة الامتحانات، فإنها قد تمكث شهراً أو أكثر من دون زيارة أهلها. وكان هنالك مثل شائع يقول (البعيد عن العين، يكون بعيداً عن القلب)، ومن هذه النقطة بالذات استطاع أن يلج إليها، ولكنهما أبرما اتفقا، على ألا يكون بينهما أي التزام. وكان ذلك يلائمه كثيراً.

بدأت حمى الحفل بالتنامي شيئاً فشيئاً، وشرع أصدقاؤه المحتفلون بتخرجه بالغناء، أما هو فكان تفكيره مسْتَفَزَا ومستثاراً جراء جلوس فتاتين إلى جانبيه. رغبته في (جانا) كانت أكبر، ولكن ذلك يتطلب منه الخوض في أمر لا يعرف عواقبه. فإن

صدته، فقد تجرح كبرياءه. ومن ناحية أخرى إن اكتشفت(سعادا) محاولته، فإنها وبسبب الغيرة لن تغفر له تفضيله لأخرى عليها.

تأنى كثيراً منتظرا الفرصة المناسبة، وقد سنحت له عندما رقص أصدقاؤه رقصة شعبية أشبه بالدبكة وانضمت (سعادا) إليها، أما هو و(جانا) فقد آثرا عدم المشاركة.

خاض معها حديثا عاماً، ثم سألها عن الشاب الذي تواعده حالياً. فأبدت له شيئاً من عدم الرضا فيما يخص تلك العلاقة خلال حديثها. فكانت تلك بداية مشجعة له.

بعد عدة دقائق انتهت الرقصة وتحولت الفرقة الموسيقية إلى عزف أنغام هادئة فبادر وطلب من(جانا) أن تراقصه، بينما جلست (سعادا) تلتقط أنفاسها من تعب الرقصة السابقة.

أمسك يدها اليسرى بيده اليمنى، وطوق كتفها بيده اليسرى. احتفظ في بادئ الأمر بمسافة قصيرة بينه وبينها. ولكن عندما استُبدلت الأنوار الشديدة بأخرى خافتة بما يتلاءم مع جو الرقصة تلك، أخذ يشدها إليه شيئاً فشيئاً حتى أصبح وضعهما أقرب إلى المعانقة، وحينما لم تبدِ تمنعا، طبع على رقبتها قبلة خفيفة، فشعر بيدها التي تحيط بها خصره، تجتذبه نحوها. فعلم بأن الأمر قد حسم ولم يتبق أمامه سوى تدبر أمر التملص

من(سعادا) لتلك الليلة.

أمضى (سمير)، شهراً لكي يصدق شهادة تخرجه، وكذلك ليشتري سيارة من مدينة (ميونخ) الألمانية. وعندما حان أوان المغادرة فعل ذلك بهدوء دون أن يودع أحداً، فلم يكن يقوى على تحمل ألم تلك اللحظات.

قطع بسيارته نحو ستة آلاف كيلومتراً؛ ليصل أخيراً إلى الوطن الذي فارقه منذ أكثر من ستة أعوام، ولم ينقص رحلته تلك سوى عدم وجود رفيق سفر معه. كم تمنى لو أن (علاء) نجح من الدور الأول ليرافقه.

بعد شهر من عودته ومعادلة شهادته، سيق إلى الخدمة العسكرية. لتنقلب حياته رأساً على عقب. فقد شاهد هناك وجها آخر لوطنه. وطناً تداس فيه كرامة الإنسان بأحذية الضباط، وضباط الصف الغليظة. لذا فإنه لم يتردد بقبول عرض قُدم إليه للعمل في التصنيع العسكري. فهناك على الأقل توفر الشهادة حيزاً من الكرامة لصاحبها وملاذاً آمنا من الحرب المستعر أوارها بين العراق وإيران.

أما(علاء)الذي عاد إلى الوطن بعد أربعة أشهر، فلم يلتق به ولم يسمع عنه شيئاً، إلا بعد مرور عام ونصف تقريباً.

التقيا ذلك اليوم، مصادفة في شارع السعدون عند الجهة

المقابلة لفندق فلسطين. ولم يتعرف عليه إلا بعد أن دنا منه لمسافة قريبة، فقد أطلق(علاء) شاربيه، واكتسب وجهه القمحي سمرة شديدة بسبب لفحات الشمس، ولكن أبرز تغير حصل له هو فقدانه لشعره المجعد الطويل الذي كان متدلياً لغاية كتفيه.

بعد أن تعانقا وتبادلا كلمات الترحاب، سأله عن أحواله فقال له (علاء) بنبرة معتدة:

- أعمل حالياً بصفتي مهندساً والمترجم الخاص لمدير شركة بوسنية لها مواقع عديدة في العراق وبراتب شهري كبير والحمد لله، وأنت؟

فأجاب(سمير) متبرماً:

- أنا منتدب في التصنيع العسكري وأقيم عند بيت عمي في حي زيونة. ولكن قل لي بربك كيف تمكنت من العمل في شركة أجنبية قبل أن تنهي خدمتك العسكرية؟
- كل شيء ممكن بالوساطات، لقد تدبر عمي (عبد)، الأمر لي.

لم يعر الموضوع كثيراً من الاهتمام، وعاد يسأله ثانية، عن حياته الشخصية، فأخبره بأنه تزوج بعد عودته بثلاثة أشهر، ورزق بولد قبل أسبوعين أسماه (عدي).

- مبارك لك. هل مسموح لي أن أدعوك بأبي عدي.

لم تفتْ(علاء) ملاحظة الغمز الذي أبداه، فرد عليه قائلاً بحنو:

- يا عزيزي، هنا يتوجب عليك أن تتحاشى التعرض للنظام ولو غمزاً، لقد خضت بنفسك تجربة مرعبة وأنت في أقصى الأرض، فما بالك وأنت الآن في عرين الأسد. ولكن دعك من هذا الآن وحدثني عنك، ألم تتزوج بعد؟
- عرضت عليَّ أمي، فتيات كثيرات، معظمهن من محيط الأقارب، ولكنني رفضت أي زواج تقليدي ترتبه العائلة لي. فأنا أفضِّل العثور على فتاة أحلامي بنفسي، ولكن ليس إلى ذلك من سبيل وأنا أمضي في موقع العمل اثنتي عشرة ساعة في اليوم، ناهيك عن الوقت الذي يستغرقه مني الوصول لموقع العمل والعودة منه. وحقك! أنا أخرج قبل شروق الشمس، وأعود بعد أن تكون قد غابت بوقت طويل، ولا يتبقى لي من اليوم سوى وقت النوم. والأدهى من ذلك أنهم يمنحونا ثلاثة أيام فقط، كل شهرين كإجازة، حتى أني لم أتمكن من زيارة أهلي سوى مرتين خلال عام

ونصف.

- وفي موقع العمل، ألا توجد من بنات حواء من تثير اهتمامك؟
- واحدة فقط استأثرت باهتمامي، فتاة جميلة بحق، ولكني لم أكد أشرع بالتقرب إليها، حتى خُطِبَتْ من قبل ابن عمها، أما المتبقيات فتستطيع القول بأني في وسط ذكوري بمعنى الكلمة.

ندت عن(علاء) ضحكة عالية، وقال وهو يضع كفه على كتف (سمير):

- راحت عليك أيامك السابقة يا صديقي. خذ نصيحتي، ووافق على أي عرض يُقدم إليك وتزوج. لا يهم إن كانت ابنة عمك، أو ابنة خالك. فالجنة من غير حواء، ليست بجنة. أنا مثلا تزوجت من ابنة خالي، ولست نادماً على ذلك.

فقال له متحيراً:

- لا أعلم، سأكمل خدمتي العسكرية، وبعدها أقرر.

طلب منه(سمير)التسكع معه، أو الجلوس في مكان ما، ولكنه اعتذر له متذرعاً بالتزامه مع مدير الشركة.

-١٠-

حرب أخرى تلوح في الأفق. غزو العراقُ للكويتَ الجار الجنوبي الصغير قد يبدو أشبه بالنزهة، ولكن الحشود الكبيرة بقيادة الولايات المتحدة وحلفائها، تفصح عن حرب كبيرة.

بعد ستة أشهر من التعنت والرفض لتجنيب العراق ويلات الحرب، بدأت ما تسمى بعملية عاصفة الصحراء.

كان الإعلام العسكري يبشر المواطنين بنصر ساحق وهزيمة ماحقة للعدو ما إن يتم الهجوم البري. ولكن الهزيمة كانت نكراء ولم تصمد قطعات الجيش التي فر معظم جنودها وُدمرت معظم آلياتها، ثم صدر أمر الانسحاب، قبل أن يرضخ النظام للاستسلام المذل.

عاد من تبقى من الجنود الذين نجوا من القصف سيراً على الأقدام بمشهد مأساوي غير مسبوق.

كان (باسم) الذي سيق لخدمة الاحتياط في الجيش بعد الغزو محظوظاً، لأنه أصيب بشظية قنبلة رمتها طائرة أمريكية بالقرب من موضعهم في بداية الحرب.

كانت إصابته متوسطة وسرعان ما تعافى منها وتوجب عليه الالتحاق بوحدته، لكن الطبيب كان متعاطفاً معه فمنحه إجازة

طويلة انتهت مدتها مع بلوغ وقف إطلاق النار حيز التنفيذ.

ومع مغيب شمس اليوم التالي، سُمعت أصوات إطلاق الرصاص، ومن ثَمَّ أصوات تهتف بسقوط النظام الذي تبخرت أجهزته الأمنية فجأة. وكان(باسم)أحد الناشطين في تلك الانتفاضة ويقود مجموعة مسلحة. وعندما أُبلغ بأن ثمة حركة مشبوهة في إحدى الدور التي كانت قيد الإنشاء، توجه إليها وداهمها ليعثر بداخلها على رجلين كانت بحوزتهما بندقيتي كلاشنكوف فارتاب بكونهما تابعين لأجهزه النظام الأمنية.

استولى على البندقيتين، وقاد الرجلين إلى المسجد الذي تحول إلى مقرٍ للعمليات، وعند التحقيق معهما، أنكرا انتسابهما للأجهزة الأمنية وادعى أحدهما بأنه مهندس والآخر سائق، يعملان في شركة أجنبية بوسنية، وأنهما كانا في طريقهما إلى بغداد بعد زيارة لأحد مواقع الشركة في البصرة. فتقطعت بهما السبل بسبب الانتفاضة. ولأنهما لا يعرفان أحداً في المدينة، فقد التجآ إلى تلك الدار. ورغم أن هويتيهما كانت متطابقة مع أقوالهما، إلا أن السلاح الذي كان بحوزتهما أثار الريبة عند (باسم) بأنهما من أزلام السلطة، فلجأ إلى نزع الاعتراف منهما بالقوة، ولكنهما بقيا مصرين على ما يقولانه.

كان على وشك إطلاق سراحهما عندما خطرت على باله

استشارة جاره (سمير) بشأنهما، لأنه مهندس ودرس في البوسنة، وباستطاعته كشف صدق ادعائهما من زيفه.

كان(سمير) في إجازة مفتوحة منحت للموظفين بسبب الحرب. وأثناء تواجده في بيته توفي جده الذي شارف على التسعين، وأقيم له سرادق عزاء الذي امتلأ على آخره بالأقرباء والجيران وجنود وأشخاص تقطعت بهم السبل. وكان تدبر أمر إطعامهم يجري بمشقة كبيرة.

حمل(باسم) معه البندقيتين اللتين استولى عليهما، وفكر بإهدائهما لجاريه(سمير) و(منير)، لأنهما لا يمتلكان أي سلاح في مثل هذه الظروف الصعبة.

دخل السرادق وبعد أن قرأ سورة الفاتحة، طلب التحدث مع (سمير)على انفراد، فجلسا عند طرف السرادق. أخبره بقصة الرجلين.

فعلق (سمير) قائلا:

- يبدو أن عذرهما مقبول. أنت تعرف أن هؤلاء الجالسين في السرادق، هم ممن تقطعت بهم السبل، فلم لا يكونان كذلك.
- لكن حدسي ينبئني عكس ذلك.
- وما المطلوب مني؟

- أن تذهب معي لتقابلهما.

وافق على طلبه، ورافقه إلى الجامع الذي لا يبعد كثيراً عن منزله. وهناك استقبلهما رجل دين شاب محاط بمجموعة من الشبان المسلحين ببنادق كلاشينكوف.

قاده إلى غرفة خادم المسجد، ليجد شخصين جالسين على الأرض، وهما موثوقي الأيدي إلى الخلف ومعصوبي الأعين. فسألهما:

- من منكما المهندس؟

فأجابه أحدهما بصوت مشوب بحشرجة:

- أنا.

لم يصدق ما سمعته أذناه. فنبرة الصوت ليست غريبة عليه. رفع العصابة عن عينيه، ولما شاهد وجهه صرخ قائلاً:

- (علاء) هذا غير معقول! فكوا وثاقيهما حالاً.

أشخص(علاء) بصره نحو(سمير)، وتمتم بصوت واهن:

- (سمير)!

ثم خنقته العبرة ولم ينطق بكلمة أخرى، بل ظلت عيناه متسمرتين إلى صديقه الذي راح يؤكد للحضور بأن ذلك الشخص، هو زميله بالدراسة، ويعمل فعلاً، مهندساً في شركة بوسنية.

فانبرى شابان وحلا وثاقيهما. كان مظهره رثاً للغاية ويثير الشفقة، وغيرت ملامح وجهه، تلك اللحية النابتة، والشفة المتورمة، والكدمة حول عينه اليسرى التي أسداها له أحد الذين حققوا معه.

فانهالت عليهما كلمات الاعتذار وطلب منهما رجل الدين الصفح عنه وقبول ضيافته لهما. فرد(سمير)عليه:

- أنا أولى بهما، سيحلان ضيفين عليَ إلى أن تهدأ الأمور.

لكن(علاء) أصر على المغادرة وقال يلتمسه:

- إن أردت حقا أن تسديني معروفاً، فتدبر لنا وقوداً لسيارتنا، يكفينا للعودة إلى بغداد.
- ولكن الطريق ليس آمناً، فعلى الأقل تعال معي لتأخذ البندقيتين اللتين صادراهما الشباب منكما.

فرد(علاء) قائلاً:

- هما حلال عليك فلست بحاجة لهما، وأعتقد بأن الأفضل لنا أن نقطع طريق العودة من دون سلاح، كي لا نتهم بأننا منتسبان لجهة أمنية.

ولكن من دون سلاح قد تسلب منكما سيارتكما.

- لتذهب السيارة إلى الجحيم فهي على أي حال ملك

للشركة، سنقطع بها ما نستطيع قطعه من الطريق، والباقي سيتدبره الله لنا. منذ ثلاثة أسابيع وأخبار أهلي مقطوعة عني، أما صديقي هذا وهو من الرمادي فمنذ بداية الحرب لم يزر أهله.

فتبسم وقال:

- ستطيح بك حواء يوماً ما، ولكني عاتب عليك لأنك لم تقصدني، هل حقاً كنت تعتقد بأنك لا تعرف أحداً في(العمارة)؟ وماذا عني؟
- كل ظني أنك في بغداد.

كان أسِفاً لأن(علاء) رفض ضيافته، ولكنه تفهم تلهفه للعودة إلى أسرته.

غادرا بعد أن زُوِدا بالوقود وبورقة توصية من رجل الدين، بعدم التعرض لهما من قبل المجاميع الجهادية، ولكنها لا تغنيهم في شيء، إذا ما تعرض لهما قطاع الطرق.

بعد عدة أيام تقدمت قوة من الحرس الجمهوري من محور المدينة الشمالي، لتقمع الانتفاضة التي سميت بـ (الشعبانية) لوقوعها في ذلك الشهر من التقويم الهجري. ووصلت إلى تخوم الجسر(اليوغسلافي) الذي لم يتضرر كثيراً بقصف

القوات الأمريكية له. فأخذت مكبرات الصوت تحث الشباب للنفير لصد هجوم.

فتطوع عدد من الشباب الذين أقلتهم السيارات، وكانوا قرابة ثلاثين مقاتلاً بإمرة(باسم). وانضمت إليهم مجاميع أخرى من مناطق مختلفة، وحدث اشتباك عنيف بين القوتين استمر منذ ساعات الصباح الباكرة، ولغاية غروب الشمس. استطاعوا فيها صد تقدم قوات الحرس وإفشال محاولة إنزال بالمروحيات.

حل المساء وغشى المدينة بعتمته، فتقلصت حدة تبادل إطلاق النار بين الطرفين. كان جميع المقاتلين يشعرون بالإجهاد والجوع والبرد، فكان من الحكمة أن يستغل المقاتلون فرصة الهدوء النسبي وأخذ قسط من الراحة ليتمكنوا من مواصلة القتال في اليوم التالي فقسموا أنفسهم إلى أربع مجموعات، تتناوب فيما بينها على الحراسة كانت نوبة تبدأ مع حلول الفجر فذهب مع مجموعته ليأخذوا قسطهم من الراحة في الجامع على أمل ألا يحدث خرق خلال الليل.

عند الفجر، كان كل شيء قد انتهى. فلم يستطع العدد القليل المتبقي من المقاتلين صد هجومٍ ليلي فاندحروا، وهرب معظم المقاتلين صوب الحدود الإيرانية القريبة من مدينتهم، خشية تعرضهم لبطش النظام، وتبعتهم في ذلك عائلات كثيرة.

لكن (باسم) آثر الاختباء في بيت عمته في قرية تقع عند مشارف المدينة. ولكنه وقع في قبضة رجال الأمن بسبب الوشايات التي طالته. بينما تمكن(سمير) من مغادرة المدينة بفضل هوية التصنيع العسكري التي جنبته الاعتقالات التي استهدفت الشباب، والتحق بعمله. ووجد أن الحكمة تقتضي تجنب زيارة أهله لأن بطش النظام كان شديداً وطال حتى غير المشتركين في أعمال الانتفاضة التي أطلق عليها اسم (صفحة الخيانة والغدر).

-١١-

بعد ستة أشهر بدأ سعار غضب النظام تخف حدته، ولربما شُغِلَ بموضوعٍ أهم، وهو لجان التفتيش الدولية عن أسلحة الدمار الشامل التي كان يقودها (ديفيد كي)، وحينذاك قرر زيارة أهله لأول مرة.

بدا على المدينة وكأنها تعافت من أثار الحرب والانتفاضة بعد أن رُممت الجسور والبنايات المحترقة، ولكن الجرح الغائر عميقا في قلبها لم يندمل بعد. كانت قلوب الآباء والأمهات والزوجات تترقب أخبار الفجيعة بفلذات أكبادهم الذين لم ترد أسماؤهم في قوائم الأسرى، وآخرين اعتقلهم النظام الذي يحاول استبدال خيبة هزيمته مع عدوه بانتصار على أبناء بلده في مجزرة أطلق عليها (صفحة الخيانة والغدر).

وبعد عودته بيومين، سمع جلبة وزغاريد تصدر من بيت (هيام) فذهب (منير) ليرى ما الأمر، وعاد بعد خمس دقائق متهلل الوجه، وقال:

- لقد أفرجوا عن (باسم)!
- الحمد لله، هل هو بخير؟
- يبدو هزيلاً جداً وكأنه هيكل عظمي، ولكن خروجه من

المعتقل أشبه بولادة ثانية له. المهم. إنه يريد رؤيتك ليطلعك على شيء هام.

كان مستغرباً لطلبه ذاك فسأل:

- ألم يبلغك عما يريد أن يخبرني به؟
- تعذر عليَّ ذلك، لأن أناساً كثيرين أتوا لمباركته على خروجه من المعتقل. إن شئت ذهبنا إليه الليلة.

تلك الليلة ذهبا إلى(باسم)، وقبل دخولهما صالة الاستقبال تراءى له أنه لمح (هيام) وهي تخطف في صالة المعيشة.

بدا (باسم) هزيلاً كما وصفه شقيقه، وكان بالكاد يستطيع تحريك يده اليمنى بسبب حدوث خلع وكسر فيها.

كان بمفرده، فأخذ يسرد معاناته وما تعرض إليه في المعتقل:

- بعد أن اعتقلوني نقلوني مع مجموعة إلى معتقلٍ كبير في بغداد؛ علمت لاحقاً بأنه يقع في منطقة (الرضوانية)، وهناك حشروا كل مائتي معتقلٍ في زنازين تسمى(عنابر)لا تسع ربع هذا العدد، فكان النوم بحد ذاته، أقسى من كل تعذيب عانيناه، وكان البعض ينام بينما يقف الباقون ريثما يحل دورهم. أما الزنزانة، فكانت سيئة التهوية ورائحتها منفرة وتزكم الأنفاس، وتزامن فترة وجودي هناك مع جو حار وخانق. ومن

كان لديه مشاكل في التنفس، لم يستطع الصمود، فكانوا يسقطون ميتين مثل الذباب الذي تعرض إلى رشة مبيد قاتل. وكان هناك فراغ بين أسفل باب الزنزانة الحديدي والأرض لا يكاد يتجاوز السنتمترين، يستطيع المعتقل إذا ما دس أنفه بالقرب منه أن يستنشق هواء نقياً من الرواق، أطلق عليه المعتقلون اسم قبلة الحياة، وكانوا يتناوبون الدور لبلوغه. كان العديد من المعتقلين يموتون أيضاً بسبب التعذيب، ولكن ذلك الشيء لم يقلص العدد، بسبب الزج بوجبات جديدة منهم. ولسبب ما لا أعرفه كان التحقيق يجري في الليل فقط. وكان ذلك ولسخرية القدر يمنح الفرصة لعدد مماثل للنوم بدلاً عنهم. وما أخبرتكما به عن التعذيب الذي يؤدي إلى قتل الكثيرين شيء والتحقيق شيء مختلف تماماً!

فسأله (سمير):

- لم أفهم ماذا تقصد؟
- سأضرب لك مثالاً بسيطاً، ذات يوم أعطونا مقلمة أظافر وأمروا الجميع بتقليم أظافرهم خلال خمس دقائق فقط وتوعدونا بأن من يجدون أظافره غير مقلمة

فسيتعرض لعقوبة شديدة، ولك أن تتخيل الموقف. ألفا ظُفُر يتوجب تقليمها بهذا الوقت القصير!

- وكيف عالجتم الموقف؟
- أدركت أن المقلمة لن تصلني لأني كنت في الطرف الآخر من العنبر فقلمت أظافري بأسناني، ولكن بعضنا لم يتدبر أمره، وعندما أجروا علينا التفتيش في الخارج، كان الضابط المسؤول على التفتيش يحمل بيده هراوة ضخمة، يهوي بها على رأس من يثبت أنه لم يقلم أظفاره. في ذلك اليوم لقي ثلاثة من عنبرنا حتفهم ومثلهم حصل على كسر في جمجمته. كان كل يوم يمر على المعتقلين يزيدنا قناعة بأننا قريبون جداً من الموت. وبعض من فقد بارقة الأمل بالنجاة واعتقد أنه ميت لا محالة فضل افتداء حياته والتخلص من المعاناة بالإدلاء والاعتراف بأية تهمة توجه إليه، فيتم إعدامه بشكل فوري.
- وأنت كيف تدبرت أمرك؟
- كنت أتضرع إلى الله طوال الوقت لينجيني، وحدثت المعجزة، بل ثلاث معجزات! الأولى هو أني اعتقلت بسبب وشاية أو سمها اعتراف من قِبَلِ أحد الأخوة

المجاهدين الذي لم يتحمل التعذيب فاعترف على نفسه وعليَّ، وعندما نقلونا إلى بغداد توفي ـ رحمه الله ـ قبل بلوغه مرحلة التحقيق. وهذا خلصني من الشق الأول الذي يؤدي إلى موت محقق. وتبقت مسألة الحظ والتوفيق، وهي المعجزة الثانية.

- والثالثة؟
- هذه هي التي طلبتك لكي تَطَّلع عليها!

اكتست وجه(سمير)الدهشة وهو يبحلق في وجه(باسم) محاولاً تقليب فكره عن شيء يربطه بكلامه لكن الأخير تابع كلامه:

- تلك الليلة، جاء دوري للتحقيق. فاقتادوني معصوب العينين إلى إحدى الغرف وأجلسوني على كرسي وأوثقوني إليه. كانت العصابة تحجب عيني عن الرؤية بشكل تام، ولكن مع ذلك، كنت أميز وجود شخصين داخل الغرفة. كان صوت المحقق الذي يتولى انتزاع الاعترافات من المعتقلين يأتي من أمامي. بينما يقف إلى جانب الكرسي، مساعده الذي يتولى ضربي بسبب أو بدونه. فإن كان صوتي خافتاً، يقوم بضربي لأرفعه، وإن كان مرتفعاً يضربني لأخفضه. ابتدأ المحقق كلامه بنبرة ناعمة، قائلاً: أنا أدرك أن سبب

تورطك في الأحداث ليس بسبب عدائك للحزب والقيادة، بل سببه الاندفاع وفورة الشباب، لذا أنصحك بالاعتراف فهو خير لك. سيحكم عليك بالسجن لبضع سنوات، ولربما لن تقضي نصفها ويشملك العفو العام. ولكني أصريت على براءتي فصرخ المحقق بنبرة غاضبة:(ابن الق. بة، الظاهر انته مشتهي الكتل). ثم تناهى لسمعي وقع أقدامه تقترب مني، وركلني على ركبتي، ثم هوى بقبضته على خدي الأيسر بينما كان مساعده يشد شعري ليبقي رأسي مرفوعاً، ثم توقف فجأة وخيم الصمت. بعدها قال لمساعده:(ارفع عنه العصابة). رفعها المساعد وأخذ يتفرس في وجهي بتمعن، وسمعته يتمتم: (يتراءى لي أن رأيت وجهك من قبل!) نظرت بدوري إلى وجه المحقق، وهنا كانت المفاجأة، أتعرف من كان؟

- من؟
- ذلك المحقق، كان ذاته صديقك المهندس.
- (علاء)!!
- هو بشحمه ولحمه! وهنا حدثت المعجزة الثالثة. لم يتذكر أين رآني. فقد كان الهزال قد نال مني بسبب

الجوع، وكذلك لأني كنت حليق اللحية لأنهم لا يسمحون لنا بإطلاقها. ولكنه تفنن في تعذيبي. علقني في خطاف مثبت إلى السقف من يد واحدة، وأخذ يضربني وكأني كيس ملاكمة، حتى كدت أن أعترف من شدة الألم.

أخذت شفتا(سمير) ترتجفان وشعر بغصة في حلقه؛ أيعقل أن يكون ذلك الوحش البهيم، هو ذاته(علاء) ذلك الشاب الرومانسي الذي تراق مشاعره، مع أول كأس يحتسيها؟

-١٢-

بعد شهر من ذلك سُرح(سمير) من الخدمة العسكرية، وعاد إلى أهله، وحصل على وظيفة في شركة النفط، وكان ذلك بمثابة منعطف مهم في حياته، فأقام له والده احتفالاً بتلك المناسبة، ودعا إليه أقرباءهم وجيرانهم.

كان جالساً في صالة الاستقبال، مع والده وشقيقه والرجال الذين جاءوا لتهنئته، عندما دعته أمه ليلقي التحية على قريباته ومعارفه من النساء. كان يدور في خلدها أن يقع بصره على الفتيات، علَّ إحداهن تلفت انتباهه، ويوافق على طلب يدها. فمعظم من هم في سنه قد تزوجوا، بل وحتى شقيقه الأصغر منه، تزوج وأنجب. وليتها تكون(هيام) التي كان متعلقاً بها قبل عشرة أعوام والتي كانت ترفض كل من تقدم لخطبتها، فهي جميلة وعلى خلق كبير، وموظفة، ولم تترك يوماً دون أن تزورها وتساعدها في المنزل بعد أن استقل (منير)مع عائلته بعيداً عنها.

كان يشارك الحديث ويرد على التحايا، وفجأة لمحها. (هيام). نجمه الذي أفل وهو في أوج بريقه. رآها تجلس عند الركن القصي من الصالة، فألفاها هي الأخرى ترنو إليه. كانت

ملامح الحزن ترتسم على محياها وعيناها تستجديانه ليكلمها. أخذت دقات قلبه بالتسارع رغماً عنه، ووجد نفسه منقاداً نحوها بفعل قوة خفية. (هل شجرة حبهما مازالت تثمر؟ وأنه لا يستطيع إنكار حقيقة أنه ما زال يحبها؟).

أخذت عيونهما تخوض عتاباً صامتاً، ولكنه لم يتبادل الحديث معها، إلا بعد العشاء بعد مغادرة معظم المدعوين. تخلفت هي لمساعدة والدته بتنظيف المنزل. فبادرته مباركة حصوله على الوظيفة، فشكرها، ثم لفهما الصمت للحظات قبل أن يسألها:

لمَ فسخت خطوبتك من قريبك ولمْ تتزوجي منه؟

- أنت تعلم بأن قلبي ملك لغيره!

فقال متهكماً:

- وما قيمة القلب أمام عريس ميسور الحال، مثله.
- قلت لك! الأمر ليس بيدي، بل بمن أسَرَ قلبي.
- وإن فرط بك من يملكك!
- المالك لا يفرط بملكه.
- أنتِ فعلت ذلك بي بقبولك شخصاً آخر.

اعترتها الدهشة وقالت:

- ألم أشرح لك هذا في رسائلي التي أرسلتها لك؟

- كنت مغضباً، ومزقت الرسائل دون أن أقرأها.
- لقد أجبرتني والدتي. قالت لي (إن لم توافقي، فسأدلق النفط على جسدي وأضرم النار فيه). لقد وضِعْتُ بين خيارين صعبين للغاية، بين والدتي التي شَقَتْ لوحدها لتربيتنا بعد وفاة أبي، وبين قلبي.
- وكيف سمحت لك بفسخ الخطوبة؟
- لقد صارحتُ الرجل بأنني أهوى شخصاً آخرَ. وكان متفهما وأقنعته بالتقدم لخطبة (إبتسام). وبذلك أسعدت جميع الأطراف، إلا أنا.
- لماذا؟ ألم يتقدم لخطبتك شخص آخر؟
- تقدم لي كثيرون، جميع زملائي في العمل طلبوا يدي، ولكني رفضتهم، وكل ذلك لأن قلبي يهوى شخصاً واحداً.

ابتسم بمكر، وقال:

- ومن هو؟

ضربته برفق على ذراعه، فشعر بسطوة حبها يتدفق في شرايينه، ويزيح عن روحه كل ذلك الغل والكره والتخوين الذي اعتراها. فكر بأن الأوان قد حان ليصلح خطأه الذي اقترفه بحقها، ذلك الخطأ الذي يدين له بالفضل من ناحية أخرى،

فلولاه لكانت الآن واقعة في أحضان ذلك الرجل.

تزوج من حبيبته (هيام) وقررا تمضية شهر العسل في بغداد.

تلك الليلة كانا يتمشيان في شارع فلسطين، عندما التقى (علاء) وجهاً لوجه. فأشاح بوجهه عنه. بقي (علاء) متسمراً في مكانه لتجاهل صديقه الذي لا يستطيع على الإطلاق التبرير بأنه لم يره. كان تخطاه ببضعة أمتار فاستدار وناداه:

- (سمير)!

ولما لم يعره أي اهتمام سعى خلفه وأمسك بذراعه يتضرع إليه ليقف:

- ما الذي دهاك لتتحاشاني؟ ما الذي فعلته بحقك؟
- الأفعال التي اقترفتها، لا يُقْدِم عليها سوى شخص معدوم الضمير تماماً، غير مهم إن كان بحقي أم بحق غيري. كيف ارتضيت لنفسك أن تكون جلاداً؟

أدرك(علاء)عن أي شيء يتحدث صديقه، ولا بد من تبرئة ساحته، فقال:

- (سمير) اسمعني أرجوك؛ لا تسير كل الأمور هنا بإرادتنا. لقد أُقحمت في هذا الدرب إقحاماً.

تنحيا عند جانب هادئ من الرصيف وقال:

- أُقسم لك، ما كنت أظن أن الأمور ستؤول إلى هذا

المنحى، عندما عدت من الخارج، عرض عليَّ عمي(عبد)، الانتساب للعمل في المخابرات ليجنبني إذلال الخدمة العسكرية التي جربتها أنت بنفسك، على أن يكون عملي منحصراً مع الشركات البوسنية، من رصد لأية حركة مشبوهة لهم. وهذا الأمر لم أرَ فيه أي ضرر لأحد، بل فيه خدمة للوطن. فوافقت وكنت أستلم راتبين في آن واحد وعشت في بحبوحة، ولكن وبعد أن انسحبت الشركات الأجنبية من العراق خشية وقوع حرب مع دول التحالف، وجدت نفسي عالقاً، وهكذا أصبحت رغم انفي رجل مخابرات، عليه تنفيذ الأوامر وإلا أعدم.

- حتى لو تسبب ذلك بإزهاق الأرواح أليس كذلك؟ لقد حكى لي شهود عيان سقطوا بين يديك كيف، كم كنت عديم الرحمة معهم، حتى إنك كنت تكيل لهم الشتائم، ولم أصدق أن ذلك يمكن أن يصدر من(علاء)الذي أعرفه، فذلك كان إنساناً آخر، إنسان رقيق ومرهف المشاعر.
- لست معدوم الضمير، كنا تحت المراقبة جميعاً، فالكاميرات كانت مزروعة في كل مكان، وكل فعل

وتصرف متهاون قد يكلفني رأسي. ورغم ذلك سعيت إلى إنقاذ الكثيرين وخلّصتهم من الموت المحقق. بوسعك أن تسأل ذلك الشاب الذي يدعى(باسم)الذي اعتقلني في مدينة (العمارة)، لقد وقع في قبضة الدولة، وكان بوسعي الانتقام لنفسي منه لما لاقيت من تعذيب عندما كنت واقعاً بيده، ولكني أحجمت عن ذلك الشيء وكتبت في التقرير ما يعزز براءته.

شعر(سمير) بميلٍ ليصدقه ويتعاطف معه، فهو على أي حال لم يكن مضطراً ليبرر موقفه له. وكان بوسعه أن يرسل (باسم) إلى التهلكة. ولكنه ليس بوسعه الوثوق برجل مخابرات.

قبل أن يفترقا، هنأه (علاء)على زواجه، وبالمقابل تمنى (سمير) له التوفيق.

كان ذلك آخر عهد له به، ولم يسمع عنه شيئاً، سوى أنه وبعد سقوط النظام في عام ٢٠٠٣، وجد سبيله إلى سويسرا التي حصل على جنسيتها.

-١٣-

نفضت شجرة العمر في تقلب فصول الزمان، أيامها ولياليها. فيبست أغصان وتغضنت أخرى، بغفلة منه أو بتغافل رغما عنه. خسارته برحيل والديه لم يعوضها إلا مجيء ابنتيه (فاطمة) و(زينب)، وكأن الدنيا حافلة ركاب يغادرها أناس ويركبها آخرون.

مضت سبع سنوات منذ أن تزوج من (هيام)، وأصبحت أسرته في أعلى سلم أولوياته في الحياة التي لم تكن وردية تماماً، لأنها كانت سنوات عجافاً؛ بسبب الحصار الجائر الذي سببته العقوبات الدولية على العراق. وأصبح راتبه وراتب زوجته لا يعيلان أسرته الصغيرة، لولا المبلغ الذي أحرزه من بيع السيارة التي جلبها معه من الخارج وافتتح به محلاً لبيع المواد الغذائية، يديره شقيقه الأصغر (منير) الذي لم يرغب بالتعيين بوظيفة حكومية، فتخطى نوعاً ما الفاقة التي حاقت معظم الناس.

عشر سنوات انقضت منذ أن ودع حياة المرح والانعتاق التي أمضاها في البوسنة، وأصبحت في طي النسيان، تحت وطأة الحياة والعائلة التي لم تترك له فرصة حتى لتقليب ألبوم

صوره. وظن أنه أسدل الستار عليه إلى الأبد وأصبح خلف ظهره. ولكنه وعلى ما يبدو، لم يسوِ حسابه مع الماضي كلياً. ذلك الصباح نهض من نومه مبكراً تجلله الغبطة لأن ابنته البكر(فاطمة) سترتاد المدرسة في يومها الأول. كان منظرها مضحكاً، وهو يشاهد أمها تلبسها ثيابها، وهي نصف مستيقظة وتحاول العودة إلى فراشها.

ولأن هذا هو يومها الأول، فقد رافقتها (هيام) إلى مدرستها القريبة منهم كما يفعل كل الآباء. أما هو فقد أخذ إجازة من دائرته ليبقى مع ابنته الصغيرة (زينب) التي لم تستيقظ بعد.

ضحى ذلك اليوم قُرع جرس منزله، فذهب ليرى من الطارق. فتفاجأ بـ(جمال) واقفاً أمامه بلحمه ودمه. شكله لم يتغير كثيراً، إلا أن اللون الفحمي لشعر رأسه ولحيته يفضح أمر استخدامه المفرط للصبغة التي أخفى بها الشيب.

أخذه بالأحضان وهو غير مصدق لرؤيته بعد عشرة أعوام من الانقطاع التام بينهما. أدخله إلى غرفة الاستقبال وبادره متسائلاً:

- ما الذي أتى بك يا رجل؟ الناس يحاولون الفرار من العراق بشتى السبل، وأنت تعود إليه برجليك! هل هو مرض الحنين إلى الوطن الذي أعادك؟

- كلا، أنا هنا في زيارة قصيرة ضمن وفد من المغتربين العراقيين. قدمنا بدعوة من وزارة الخارجية العراقية لكي تحضنا على طرح مظلومية الشعب العراقي في بلدان المهجر لكسب الرأي العام هناك. وقد تكفلت الحكومة العراقية بدفع نفقات السفر والإقامة في فندق فلسطين. فهل من الصائب تفويت مثل هذه الفرصة؟
- هنيئا لك يا عم، فالدولة تكرم تنكرك لها فغدوت ضيفاً عندها، أما نحن الذين قررنا الانتماء للوطن، فقد تفننت بتجويعنا وإذلالنا، ولكن كيف اهتديت إلي؟
- كان معي من ضمن المدعوين صديق من مدينة (العمارة) كان يروم زيارة أهله، ودعاني لمرافقته. فقلت لنفسي ولم لا؟ لن أفوِّت فرصة اللقاء بك. و(العمارة) كما تعلم، مدينة صغيرة وعائلتك معروفة فيها، سألت عنك، فأرشدوني إلى محل سكناك.
- إنها مفاجأة سارة بالفعل، لا أصدق أن عشرة أعوام مرت منذ آخر عهد لي بك. قل لي بربك، كيف تدبرت أمورك خلال تلك السنين؟
- لابد أنك سمعت عن الأحداث التي عصفت هناك، لقد تمزق المجتمع على أساس عرقي وصار القتل على

الهوية، الجار يقتل جاره والمدرس يقتل طلابه. هل تذكر صديقك البوسني(بسيم)؟

- نعم! ما باله؟
- لقد أصبح مشهوراً كأحد قادة الفيلق البوسني الخامس خلال الحرب مع الصرب.

كان قد سمع عن كل ذلك، فقد شاهد العالم بأسره المأساة البوسنية، فسأله:

- وأين أنت من كل ذلك؟
- كنت قد أنهيت دراستي وقررت حينها العودة إلى العراق، إلا أن غزو الكويت غيَّر خططي كلها. فتوظفت في أحد المصانع، وتزوجت من موظفة تعمل معي؛ وعندما لاحظت بوادر الانقسام الطائفي، بدأت تطفو على السطح؛ انتقلت مع زوجتي وابنتي، للعيش في كرواتيا.
- وماذا حل (بفادي)؟
- (فادي)هاجر إلى السويد وتزوج بفتاة سويدية. على أي حال أردت إخبارك بأمر يهمك.

قاطع كلام ضيفه، عندما نهض ليحضر له زجاجة مشروبات غازية، كما توجبه أصول الضيافة.

نظر (جمال) إليه وقال:

- لم كلفت نفسك؟ حتى إني قلما أشرب المشروبات الغازية، وأفضل شرب البيرة عليها.
- يا صديقي لقد تبدلت الأحوال عندنا، فالذي تجرعناه هنا أمَّر من طعم العلقم. الإنسان في أوروبا يولد ليتمتع بما تجود به الحياة من ملذات ومسرات، أما نحن فنولد منتظرين تلك الساعة التي سنموت فيها.
- ما هذا البؤس الذي حل بكم؟ لم أكن أصدق الأخبار التي كانت تردنا، وكنا نظنها مسألة إعلامية تستخدمها الدولة للخروج من الفصل السابع من العقوبات. ولكن كلامك هذا هو بالضبط ما سمعته من جميع معارفي هنا، وحتى أخي الذي لم يشرب الماء في حياته، لأنه كان يفضل شرب البيرة عليها، وجدت جبهته وقد أكلتها كثرة السجود.
- لقد وقع علينا ظلم شديد يا (جمال)، ولم يكن لنا ملجأ سوى التوجه بالدعاء إلى الله سبحانه وتعالى، ليخلصنا من الظلم.

سادت لحظة من الصمت، ثم تنبه إلى أن (جمال) كان يريد إخباره شيئاً مهما. فسأله عنه.

- حسنا، قابلت قبل أربع سنوات، وبطريق المصادفة، (جانا).

شعر برعشة عفوية سرت في جسده لذكر اسمها. ولكنه تمالك نفسه كي يخفي شعوره. واسترسل(جمال) بالكلام.

- كانت بصحبة فتاة في الخامسة من عمرها، التقيت بهما في مدينة (زغرب) وكانت في طريقها إلى ألمانيا حيث تقيم، عائدة من زيارة قصيرة لأهلها. وسألتني عنك، فقلت لها بأني لم أسمع عنك شيئاً منذ مغادرتك إلى العراق. فقالت لي:(إن أنت تمكنت بأي حال من الأحوال الاتصال به، فأخبره بأن ابنتي هذه، هي ابنته من صلبه).

كان يتوقع أن يسمع أي خبر عن (جانا)، أن تكون ماتت، تزوجت، مازالت تحبه، أي شيء، لكن هذا الكلام الذي سمعه لتوه لم يكن يتوقعه، وليس بوسعه تصديقه. فتساءل:

- وكيف يكون ذلك؟ أنت تعلم بأن علاقتنا كانت قد انتهت قبل عودتي بعام كامل، وأنها كانت مرتبطة بشخص آخر.

مسَّدَ(جمال) شاربيه وقال بثقة:

- لم يَفُتْني ذلك، وسألتها ذات سؤالك. فأجابتني، بأنها

كانت قد أعادت علاقتها بك بعد حفل تخرجك ولغاية مغادرتك إلى العراق، وعلى ما يبدو أنها لم تتوقع أن تحمل منك أنت بالذات، بهذه الفترة القصيرة. حتى أن صديقها طلب يدها للزواج، لأنه كان يظن أن الطفل هو طفله، ولم يشأ أن يولد، من دون أب رسمي، فتزوجا؛ ولكنه هجرها بعد ولادة الطفلة، عندما لاحظ لون بشرتها وملامحها، وفحص تطابق الدم أثبت أنه من المحال أن يكون هو من أولدها، وتيقنت هي من أن الفتاة من صلبك لأنها تشبهك كثيراً.

كان ينصت بذهول مطبق، ولا يعلم بماذا يجيب، فواصل(جمال) حديثه:

- وأقول لك الحق، لقد وجدت الشبه بينك وبينها كبيراً جداً، لها نفس لون بشرتك وعينيك وشعرك.

في تلك الأثناء، دخلت عليهما ابنته (فاطمة) وهي تتهادى في مشيتها، عائدة من مدرستها. لم تكن تعلم بوجود الضيف، فخجلت في بادئ الأمر ثم تشجعت عندما دعاها والدها، فاقتربت منه وهمست في أذنه:

- لقد سلموني الكتب.

دعاها (جمال) إليه وقَبَّلَها وهو يتفرس في وجهها، ثم قال:

- الفتاة التي شاهدتها بصحبة (جانا)، كثيرة الشبه (بفاطمة)ابنتك. عندما التقيت بها حينذاك، كانت بسن(فاطمة) تقريباً. لا أعلم مدى أهمية الأمر بالنسبة لك الآن، ولكنني أبلغك رسالة حمَّلَتْني (جانا) إياها، منذ أربع سنوات، ورأيت أن الأمانة تحتم على إيصالها لك.

أمضى(جمال) معه طيلة فترة الظهيرة ثم غادر عائداً إلى بغداد. تاركاً له عنوان(جانا) في مدينة(ميونخ) الألمانية.

بقي مشوش الذهن بسبب تلك المعلومة الآتية من رحم الماضي، كان يعلم أن الفتاة وإن ثبت أنها من صلبه، لا يجوز شرعاً أن تُلحق به، ولكن من الناحية البيولوجية والإنسانية، هل بوسعه ترك فتاة هو من أولدها وتسبب في قدومها إلى هذه الدنيا أو أن تشق حياتها دون أن يشغل ولو حيزا صغيرا منها؟ بدا ذلك سؤالاً محيراً بالنسبة له وأصبح يؤرقه. تكلم مع شقيقه (منير) ليعرف رأيه، فلم يعطه جوباً شافياً، عندما قال:

- القرار يعود لك.

في النهاية قرر أن يراسلها على العنوان الذي بحوزته، ولكنه لم يستلم رداً حتى وبعد أن كرر المحاولة عدة مرات. كانت قد انقضت أربع سنوات منذ أن أعطت (جانا)هذا العنوان

إلى(جمال)، وهي مدة ليست بالقصيرة. لربما تكون قد استبدلت محل إقامتها، هو نفسه خلال مكوثه في البوسنة، استبدل سكنه عدة مرات. ولذلك السبب أنشأ له صندوق بريد، ليكون عنواناً ثابتاً لتلقي الرسائل. فلماذا لم تنشئ(جانا) صندوقا بريدياً إن كانت غير متأكدة من استقرارها في محل سكن ثابت؟

فكر بالذهاب إليها، ولكنه يعي جيداً أن السفر إلى ألمانيا صعب في ظل ظروف الحصار الاقتصادي، فالحصول على الجواز لوحده، يتطلب إنفاق ثروة كبيرة، فضلاً عن تكاليف السفر. أما الفيزا فالحصول عليها تكاد تكون مستحيلة.

في نهاية المطاف أسرَّ لـ(هيام) بالموضوع الذي يشغل باله. لم تتقبل في بادئ الأمر موضوع السفر، وأخبرته بأن عائلته أولى بالأموال التي سينفقها، ثم ما الذي سيجنيه؟ هل ستتخلى أمها عنها ليرعاها هو؟ ثم أن الفتاة قد بلغت الآن التاسعة أو العاشرة من العمر، ولابد من أن حياتها بدأت تتشكل في محيط مختلف ولن تتقبل تغييره. إلى أن قالت:

- دع الفتاة تعيش حياتها في ألمانيا التي هي بمثابة الجنة، قياسا للحال الذي نحن نعيشه في العراق.

لم يكن متأكداً إن كان قولها نابعاً عن نصيحة صادقة، أم بدافع الغيرة المعهودة عن أية امرأة؛ إذا ما تعلق الموضوع

بامرأة ثانية من المحتمل أن تنازعها قلب زوجها. لكن كل تلك النصائح لم تجدِ نفعا معه، كان يتمنى على أقل تقدير أن يراسلها، أو أن يتبادلا الصور، أن يعرف اسمها، الذي نسي (جمال) أن يسأل (جانا) عنه.

وعندما أيقنت(هيام) أنه جاد في موضوع السفر، وأن الأمر متعلق بالبنت وحدها وليس بأمها، أضحت أكثر تفهما، وعرضت عليه بيع غرفة النوم، لتغطية نفقات السفر. وكانت تلك تضحية كبيرة منها لأن الأمر بدا كما لو أن ملكة تنازلت عن عرشها.

تدبر له(منير) مبلغاً من المال من المحل، وسد النقص الحاصل برأس المال، عن طريق شراء البضاعة بالآجل من التجار، وشرع بأجراء معاملة الحصول على جواز السفر. واضطر إلى دفع الرشا للحصول على موافقة التجنيد. وبعد شهر من الجري وراء المعاملة، حدد له ضابط الجوازات موعداً لاستلام الجواز، وهو يوم الخميس.

كان قد طلب إجازة اعتيادية من دائرته، وتكتم عن عزمه على السفر، لأنه لم يكن يسمح للموظف بالسفر إلا بموافقة من الوزير، وهو أمر تعجيزي.

صبيحة ذلك اليوم ذهب مبكراً إلى مكتب الجوازات، وكان

هنالك عدة أشخاص قد سبقوه بالوصول.

بعد ساعة من الزمن، وصل الدور في المراجعة إليه وكان أكثر ما يخشاه، هو اكتشاف الضابط لحقيقه كونه موظفاً وليس كاسباً كما ادعى.

أخذ الضابط ورقة المراجعة، ثم استدار نحو الحاسوب وأدخل اسمه، وما لبث أن استدار نحوه وقال:

- اسمك موجود على لائحة المنع من السفر.

فقال متعجباً:

- ولماذا؟
- يبدو أنك كنت تعمل في دائرة مهمة في التصنيع العسكري.
- لكن ذلك كان منذ ستة أعوام؟
- وإن يكن، المنع يبقى سارياً ولربما إلى نهاية العمر.
- وما العمل؟ ألا توجد وسيلة لرفع المنع عني؟
- بإمكانك مراجعة دائرتك التي وضعت المنع عليك وتُجري معاملة الرفع.

أعاد إليه الضابط معاملته، ورجع خائباً إلى البيت.

بعد يومين سافر إلى بغداد لمراجعة دائرته القديمة، لكن الموقع الذي كان يعمل فيه جرى تسويته مع الأرض من قبل لجان

التفتيش التابعة للأمم المتحدة، أما الموظفون، فتم دمجهم في مصنع يقع شمالي بغداد. وهناك صادفته عقبت أخرى لأن أرشيف الموظفين المصور، لم يتضمن تأييد ببراءة الذمة. فرفض الموظف إجراء المعاملة له رغم أنه حاول أن يغريه بالمال فلم يقبل، فسأله:

- ما الحل إذاً؟
- أن تراجع هيئة التصنيع العسكري.

ولم يجدوا له حلاً، في هيئة التصنيع فعاد بخفي حنين؛ وكأن ثمة قوة خفية كانت تعمل ضد محاولته السفر، أرغمته في النهاية على الاستسلام وطوي تلك الصفحة.

-١٤-

بدا وكأن تلك القضية قد ركنت في طي النسيان، ولكن بعد ثلاثة أعوام حدث شيء نفخ فيها الروح، فقد تعاقدت شركته مع شركة إيطالية، لتجهيزهم بخطوط إنتاجية جديدة، وفقا لما يسمى بـ (اتفاق النفط مقابل الغذاء والدواء)، ورُشح للإيفاد إلى مدينة(روما) مع خمسة مهندسين آخرين.

فتوجب عليه أن يعيد الكرَّة لرفع منع السفر، وهذه المرة أجريت له براءة ذمه بعد أن زُوِّدَ بكتاب رسمي من دائرته.

هبطت بهم الطائرة في مطار(روما). واستنشق عبق أوروبا مرة أخرى بعد ثلاث عشرة سنة من مغادرتها.

لم يفصله عن المدينة التي أمضى فيها أجمل سني حياته؛ غير أربعمائة كيلومتراً، لربما لم تتغير(بانيالوكا)، أبنيتها، شوارعها، حدائقها، ونهر(الڤرباس) كل شيء باقٍ على حاله، ولكن من تبقى له هناك؟ إذا وطئت قدماه شوارعها هل سيصادف من كان يعرفهم؟

كانت عيناه تتطلعان صوب الشمال، نحو مدينة(ميونخ) الألمانية، حيث تقيم (جانا) والفتاة.

كانوا يمضون النهار في التدريب ويعودون عصراً إلى فندق

(بلاتينو) في وسط المدينة القريب من المسرح الروماني.

كان مقرراً في برنامجهم لعطلة نهاية الأسبوع، أن يزوروا مدينة (البندقية) التي سبق وأن زارها فيما مضى، فانتهز الفرصة وطلب من المترجم أن يستثنيه من ذلك البرنامج، وأن يحجز له تذكرة إلى (ميونخ) ففعل.

في (ميونخ) استقل سيارة أجرة أوصلته إلى العنوان المكتوب على الورقة. كانت عمارة سكنية من عشرة طوابق أو تزيد، فقصد الطابق الرابع وتوجه إلى باب الشقة التي تحمل نفس الرقم المدون لديه.

بعد أن طرقه، خرج إليه رجل بطين ويرتدي قميصاً فُتحت أزراره كلها وقال له بالألمانية:

- بيته(تفضل).

فرد عليه بالإنكليزية، موضحاً بأنه لا يتكلم الألمانية، فلم يفهم الرجل كلمة واحدة مما قال.

من داخل الشقة أتاه صوت امرأة تسأل، الرجل الذي فتح له الباب، باللغة البوسنية:

- عزيزي من على الباب؟

لم يكن ذلك صوت(جانا) الذي ما زالت نغمته الرقيقة عالقةً في أذنيه. بيد أن قلبه أخذ يخفق لإحساسه بأنه اقترب كثيراً من

لقائه بـ(جانا). وقبل أن يرد عليها الرجل، سأله(سمير) باللغة البوسنية:

- هل أنت بوسني؟
- نعم أنا بوسني.

سأله عن (جانا)، وإن كانت لاتزال تسكن في هذه الشقة، فنفى معرفته بها، وقال:

- أنا أسكن هنا منذ عام، ولا علم لي بمن سكنوا الشقة قبلي ولكن سكان العمارة جلهم من المهاجرين البوسنيين، ولكن في الشقة المجاورة لنا تسكن امرأة منذ أكثر عشرة أعوام، سلها لعلها تعرفها.

وافقه على رأيه وقصد باب الشقة المجاورة وطرقه. فخرجت امرأة في العقد السادس من العمر، وأخبرها بأنه جاء ليسأل عن امرأة تدعى (جانا). فأبدت معرفتها بها وقالت بنبرة حزينة:

- أوه (جانا) المسكينة، لقد ذهبت وابنتها قبل عامين إلى البوسنة لحضور مراسم تأبين والدها، وفي طريق العودة من هناك، تعرضت الحافلة التي تقلهما إلى حادث مروع في شمال سلوفينيا. فلقيت المسكينتان حتفيهما.

شعر بغصة في بلعومه أخرسته عن الكلام، ولم يستطع إخفاء

دمعة نزلت من عينيه. منذ ثلاث أعوام، وهو يتلهف لتلك اللحظة التي سيلتقي فيها بـ(جانا) وابنته، وما أن تسنت له حتى فوجئ بمثل هذا الخبر المؤلم. كم هي قاسية هذه الدنيا. لو أنه تمكن من السفر عندما عزم عليه قبل ثلاثة أعوام، لكان بوسعه أن يلتقي بهما.

أخذت المرأة تتفرس في وجهه، ثم دعته للدخول قائلة:

- لقد احتفظت ببعض أغراضها الشخصية عندي، الملابس تبرعنا بها للكنيسة لتوزعها على الفقراء، أما الأثاث فقد باعه مالك العمارة، ليستوفي بثمنه أجرة الشقة التي لم تدفع.

أدخلته المرأة إلى غرفة في شقتها، وأرته علبة من الورق المقوى في داخلها بعض الأغراض، فوقع نظره على ألبوم صورها، فتناوله وراح يقلبه. كان يتضمن صورا له مع (جانا)التقطاها معاً، إلا أن صورة لفتاة في الحادية عشرة من العمر، استحوذت على شعوره. وبلا وعي منه، التقط تلك الصورة، وأطال التمعن فيها. فقالت المرأة:

- لقد كنا مقربتين بعضنا من بعض، وقد أسَرَتْني بأن والد الفتاة كان طالباً من العراق. ألست أنت ذلك الطالب؟

هز رأسه بالإيجاب، وتابعت هي حديثها:

- لقد تعرفت عليك حالما رأيتك لأني رأيت صورك مع (جانا). الفتاة كانت كثيرة الشبه بك.

أجابها بنبرة مغرقة بالحزن:

- يبدو أنني هو.
- بإمكانك الاحتفاظ بالأغراض إن شئت، فعلى أي حال أنت الشخص الوحيد الذي جاء ليسأل عن (جانا).
- ليس بمقدوري ذلك، سأحتفظ بالألبوم فقط.
- اسمها (نادا).

التفت إليها مستفهما، فأردفت المرأة قائلة:

- الفتاة، ابنتك، كان تدعى (نادا).

ودعها وأقفل عائداً إلى الفندق. ولم يستطع مفارقة النظر إلى الصورة، وكأنه يريد من الفتاة في الصورة، أن تكلمه، أن تقول له: هأنذا ألتقي بك يا أبي بعد طول انتظار.

-١٥-

كان(باسم) يترقب بلهفة تلك اللحظة التي يُعْلَنُ فيها عن نهاية هذا النظام الذي خنق أنفاس الناس بالكرب والذي لم يترجَ أي خيرٍ منه. عمره آخذ بالتآكل وأحلامه ولدت ميتة بسبب ظروف الحصار وضيق ذات اليد التي أجبرته على ترك مقاعد الدراسة في المرحلة الثالثة من كلية التربية ـ قسم اللغة العربية ـ والبحث عن عمل يعيل به نفسه.

لم يعثر على مكان، سوى متر من رصيف شارع بغداد؛ جعله بسطة لبيع البيض، رغم مضايقة موظفي البلدية له، من حين لآخر؛ بغية ابتزازه لدفع رشوة.

كان قد سئم الوضع وتمنى أن يحكم البلد كائن من يكون، بدلاً من هذا النظام؛ ولكنه وبعد مرور عام على غزو العراق من قِبَلِ قوات التحالف بقيادة الأمريكان والإطاحة بالنظام، أضحى محبطاً، وخاب رجاؤه؛ فالفوضى تتصدر المشهد في مفاصله كافة، الأمان مفقود، ووقود السيارات شحيح، والجسور وأبراج نقل الطاقة الكهربائية التي تعرضت للقصف والتدمير؛ باقية على حالها، والأهم من ذلك بالنسبة له، هو أنه لم يعثر على فرصة عمل؛ ليعيل بها بناته الأربع وزوجته الحامل بطفلهما

الخامس. من غير أن يكون عالة، على أمه و(هيام).
منذ أيام والتوتر يسود سماء المدينة، بدأت باحتجاجات على الوضع المتردي، تطور بعدها إلى اشتباكات بين قوات التحالف، وشبان تدفعهم فورة الشباب لحمل السلاح ضد خصم قوي.
كان(باسم) يقود مجموعة من الشبان، متخصصة بزرع العبوات الناسفة؛ حيث تمكنت تلك المجموعة من إصابة العديد من آليات القوات البريطانية؛ مما اضطرهم لتغير مسار تلك الآليات، فكانوا يتفادون الطرق الرئيسة، أو يأتون بعكس اتجاه السير. وهذا الشيء حدَّ بشكل كبير، من تأثير العبوات الناسفة.
ففكر بتجاوز تلك العقبة، باختيار مكان تكون فيها الآليات مجبرة على اجتيازها، وأن تتم زراعة العبوة فقط بعد التأكد من اتجاه سير الآليات؛ فوقع اختياره على التقاطع القريب من الجسر الكبير.
كان يجلس وحيداً في منزله، مترقباً حلول الظلام، لتنفيذ المهمة؛ وكذلك عودة زوجته الحامل في شهرها الخامس، والتي ذهبت إلى عيادة طبيبة الأمراض النسائية والسونار؛ لتطمئن على حال الجنين وجنسه.

كان يتمنى أن يكون المولود ذكراً، وأن تحظى بناته الأربع بشقيق. ولكن إن جاءت البشارة بغير ما تمناه، وكان الحمل أنثى، فلن يغتم؛ ولكنه سيضطر إلى محاولة أخرى، لإنجاب مولود ذكر.

غابت الشمس وحل الظلام، وزوجته لم ترجع بعد. اتصل بها للاطمئنان عليها، فأخبرته بأنها مازالت تنتظر دورها في العيادة، وإنها ستتأخر بعض الشيء بسبب كثرة النسوة المُراجِعات.

بعد نصف ساعة، جاء أفراد مجموعته ليقلوه إلى مكان التنفيذ؛ فحمل الكيس الذي وضِعتْ فيه العبوه، التي كانت ثقيلة بعض الشيء، بالرغم من صغر حجمها.

نزل(باسم)عند التقاطع، واتخذ موقفه عند أحد أطرافه، في مكان لا يثير الشبهات، وتفرق أفراد مجموعته الذين وقعت عليهم مهمة الرصد، على محاور الطريق الأربعة، كل إلى جهته المختارة سلفاً.

مرت الدقائق ثقيلة عليه، وكلما أوغل الوقت عميقاً في جوف الليل، قلَّتْ حركة المارة والسيارات على حد سواء. شعوره بالوحدة والوحشة أخذ يتنامى. تذكر قصيدة المومس العمياء للسياب: **(الليل يطبق مرة أخرى فتشربه المدينة**

والعابرون إلى القرارة مثل أغنية حزينة.)

أحس بأن العالم كله، قد اختزل في هذا المحور.

توزع تفكيره بين مراقبه المكان بمحاوره الأربعة، وبين التفكير بزوجته وبناته الأربع؛ فهل يوجد محور خامس يا ترى يمكن للعدو أن ينفذ منه؟

ذات مرة قرأ مقولة لأحد القادة العسكريين، عندما سُئل:

- ما الخدعة العسكرية؟

فقال:(هي أن تباغت العدو من حيث لا يتوقع).

(من يدري، لربما يوجد محور خامس؟)

مع مرور الوقت، كان بالكاد يرى شخصاً يسير في الشارع، أو سيارة ما تمر؛ ولكنه أحس بوجود حركات متخفية، وهمسٍ في الجهة الأخرى من الشارع الذي كان يقف عنده.

:(والعابرون...

الأضلع المقوسات على المخاوف والظنون

أحفاد أوديب الضرير

وورثوه المبصرون.)

كانت مجموعة تترقب هي الأخرى، داخل بيت قيد الإنشاء.

اشتد شوقه لسماع صوت الهاتف يرن سواء، أكان من زوجته تزف له البشرى، أو من أحد الراصدين يبلغه فيه قدوم العدو.

ولكن ليس من الحكمة استخدام هاتفه؛ فلربما اتصلوا به في تلك الأثناء، ليبلغوه بتوجه العدو نحوه.

قطع تفكيره رنين الهاتف، فتسارعت دقات قلبه بفعل تدفق الأدرنالين وهو يخرجه من جيبه. كانت زوجته:

- (هلو) أين أنت؟ أخبرتني البنات بأنك خرجت مع أصدقائك، متى تعود فالوضع لا ينبئ بخير؟

لم تكن مُطَّلِعة على ما كان يفعله، فردِ عليها باقتضاب:

- ليس بعد، وأنتِ، أخبريني ما نتيجة السونار؟

فقالت له بدلال واضح:

- خمّن؟

فقال وهو يكاد يقفز من الفرح الذي اعتراه:

- ولد. أُقسم أنه كذلك!

- نعم إنه ولد وبصحة جيده.

ود لو أن باستطاعته التكلم معها مطولاً، إلا أن الواجب يحتم عليه أن يختصر المكالمة.

أخيرا سيحظى بولد. لم يستطع الوقوف في مكانه. شعر بأنه يُدفع من مكانه دفعاً. لكنه كبح جماح نفسه وتثبت، فهذا الموقع آمن ولا يثير الريبة، وهو الأقرب إلى التقاطع، ولم يتبقَّ له الآن سوى الانتظار.

تخطت الساعة العاشرة، وانعدمت الحركة تماماً. هدوء المساء يقطعه نباح قطيع من الكلاب آت من مكان بعيد.

شعر بالضجر بعد أن وقف متجمداً في مكانه كالصنم كل ذلك الوقت؛ اتصل به أحد أفراد المجموعة يخبره بأن الموضوع قد أرجئ، وأنه في طريقه إليه.

في طريق العودة إلى المنزل، أخبره بأن معلومات مؤكدة وصلته؛ تفيد أن قوات الاحتلال لن تدخل المدينة الليلة؛ واكتفت بتطويقها عند مداخلها.

عند باب منزله سمع (باسم)، الصوت المميز لطائره الاستطلاع بدون طيار، وهي تحلق في السماء؛ فقال لنفسه:(لربما، هذا هو محورهم الخامس!).

-١٦-

انتصف الليل وغشي المدينة، ظلام دامس؛ بسبب انقطاع التيار الكهربائي. الأوفر حظاً، هم أولئك الذين يمتلكون وقوداً لتشغيل مولداتهم الكهربائية؛ لينعموا بنومٍ هانئ، أمام مبردات الهواء.

كان(سمير) يخرج بين الفينة والأخرى، إلى باحة المنزل، ويتطلع إلى السماء، منصتاً بتوجس، لأزيز الطائرة المسيرة التي كانت تحوم في سماء المدينة؛ وكأنها عُقاب كاسر.

لا يخفى على أحد، أن انقطاع التيار كان متعمداً؛ لأن الطائرة المسيرة المزودة بكاميرات مراقبة ليلية؛ تتمكن من الرؤية بشكل أفضل خلال العتمة.

كان صوتها يتلاشى من حين لآخر، حينما تعلوا عليه الأصوات المنبعثة من مولدات الكهرباء؛ ولكن تناهى لسمعه أصوات آدمية قادمة من الخارج.

فتح الباب وأطل منه نحو مصدر الصوت، فوجد جاره الذي يقع داره عند ركن صف البيوت، وهو يتلاسن مع مجموعة من الشبان المسلحين، كانوا يكمنون خلفه في انتظار أرتال العدو. اقترب منهم محاولاً التدخل لفض الخلاف، الأمر الذي أدخل

شيئاً من الطمأنينة، إلى قلب جاره الذي وجد من يؤازره.

كان الرجل مرعوباً وهو يتخيل نفسه وعائلته، واقعاً بين فكي الطرفين المتحاربين؛ فترجاهم أن يتخذوا لهم مكاناً آخر، بعيداً عن منزله، فرفضوا وردوا عليه ساخرين:

- نحن نفتدي أرواحنا في سبيل الوطن؛ لتنعم أنت وسواك بالحرية. بينما تخشى أنت، أن يلحق الضرر بمنزلك!

فقال لهم (سمير):

- الرجل محق، وهو مثلك لا يأبه للموت، أو إن يلحق ضرر بمنزله؛ ولكنه يخاف على أطفاله. أنا أقترح عليكم أن تكمنوا عند المدرسة؛ فتحققون هدفكم وتجنبونا نيران العدو.

استجاب الشبان عندما جاء نسيبه (باسم)، وطلب منهم الانتقال إلى موضع آخر.

وتمنى (سمير) أن يكون الوضع، مجرد سحابة صيف عابرة على أولئك الفتية الذين يتسابقون عند كل مقتل.

عاد إلى بيته، وكان الجميع مستغرقين في النوم، ابنته (زينب) التي سيصادف يوم عيد ميلادها العاشر؛ كانت تحتضن فستانها الأبيض المكشكش بطبقات من قماش (الكيبور) والذي

اشتراه لها مساء أمس، مع جميع لوازم الحفلة التي ستقام مساء غد، من شموع وزينة وعصائر.

كان يتهيأ للنوم هو الآخر، عندما سمع هدير المدرعات وهي تتقدم صوب المدينة، ثم أعقب ذلك صوت إطلاق صواريخ؛ لكن هدير المدرعات توقف فجأة، ليستبدل بأصوات طائرات مقاتلة، وأخرى سمتية، أخذت تطلق صواريخها؛ فأمست المدينة ساحة حرب حقيقية.

كان صوت الانفجارات عنيفاً ومرعباً رج المنزل رجاً عنيفاً مشابهاً لتلك الهزات الأرضية التي شهدها في (بانيالوكا)؛ فقاد زوجته وابنتيه وولده ذي الخمس سنوات المرعوبين، والتجأوا تحت السلم الخرساني لمنزلهم.

وما زاد في رعبهم هو انطفاء مولدة الكهرباء في تلك الأثناء. انتظر ليهدأ الوضع قليلاً ليعيد تشغيل المولدة ثانية؛ ولكن المعركة أخذت تحتدم بشكل أشد ضراوة.

كانت الحرارة شديدة؛ ولكن(هيام) شعرت بأن حرارة ابنها مرتفعة، ولا علاقة لها بحرارة الجو، فأخبرت زوجها بذلك؛ فهب ليعيد تشغيل المولد الكهربائي، ثم ذهب إلى البراد ليجلب تحاميل خافضة للحرارة، بينما راحت أمه تضع الكمادات على جبينه.

لكن كل ذلك لم يخفض درجة حرارته. كان الطفل يبدو خاملاً وعيناه تتقلبان داخل محجريهما، هرع إلى خارج البيت عله يجد وسيلة لاصطحاب ابنه إلى المستشفى، لكنه فوجئ بصلية إطلاقات من الطائرة استهدفت مجموعة الشبان الذين انسحبوا من محيط المدرسة، بعد تعرضهم لقصف عنيف، وما لبث أن سمع تأوهات من أصيب منهم.

كانت الطائرات تستهدف كل حركة تصدر في الشوارع، فعاد خائباً لا يعرف ما الذي يفعله ليخفض حرارة الطفل التي تأبى أن تنخفض.

مضت خمس ساعات قبل أن تعلو أصوات أذان الفجر وتخفت أصوات القصف. عندها توجه(سمير) و(هيام) بابنهما إلى المستشفى التي كانت مكتظة بعشرات الجرحى وست وخمسين قتيلاً سقطوا خلال المعركة من بينهم كان(باسم) شقيق(هيام).

عند رواق المستشفى وقبل بلوغ الطبيب، فارق الصغير الحياة بين ذراعي أمه.

سمكة أخرى تغادر الماء إلى اليابسة.

انتهت

السيرة الذاتية

تحسين علي كريدي روائي وقاص عراقي، عضو اتحاد أدباء وكتاب ميسان.

صدرت له:

- أسماك على اليابسة ـ رواية ٢٠١٣.
- استمراء الألـــم ـ روايـــــة ٢٠١٥
- للشمس وجه آخر ـ رواية ٢٠١٨
- أوراق لخريف أحمر ـ رواية ٢٠٢١

نشر العديد من القصص القصيرة جداً في المجلات والصحف العراقية.